الريحانيات



﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٦ م

الريحانيات

الجزء الاول يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وبذور للزارعين

الجزء الثاني يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور

الجزء الثالث يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وخطب

الجزء الرابع يحتوي على شعر منثور ومقالات اجتماعية وسياسيه

ثمن كل جزء من الاجزاء ١٥ غرشاً مصرياً
او نصف ليرة سورية * او ثلاثة ارباع الريال في الاقطار الاميركية
او روبيتين ونصف في البلاد العربية والمملكة العراقية

تطلب هذه الاجزاء من يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية
والمجلة القضائية في بيروت * ومن جميع المكاتب السورية والمصرية





امين الريحاني

بيروت سنة ١٩٢٢

الريحانيات

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور



تأليف

امين الريحاني

الجزء الثاني

يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور

مزيناً باخر رسم للمؤلف

﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣

في الباب

لا المجد ولا الشهرة امنيتي القصوى . ولا الجاه ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة . وانما امنيتي الجوهرية الاولى هي ان اكون بسيطاً في اعمالي . صادقاً في اقـوالي . مستقيماً في مبادئي وآرائي . فطرياً في تصرفي وسلوكي . حراً فـيما احب وما اكره وبكلمة اخرى اود ان اكون دائماً نظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن التصلف والزخرف والعجب والمصانـعة . بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذي يذل النفس ويميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجربزة والمداهنة والرياء . عليّ ان اقتبل ما يقابلني من الصعوبات في مسالك الحياة باشاً جادًا ثابتاً صابراً متجلداً . عـليّ ان اناهض الفساد والضلال في الناس وألاّ أكره احداً من الناس . اود ان اعيش دون ان ابغض احداً . واحب دون ان اغار من احد . وارتفـع دون ان ارتفع على احد . واتقدم دون ان ادوس من هم دوني او احسد من هم فوقي . هذه هي سنتي وللغـير ان يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير ان يسلكوا ذات المسلك اذا شاؤوا واستطاعوا . ليس من شأني ان اتداخل في شؤونهم ولا ان ارشدهم منذراً او اعظهم

متأمراً متهدداً . عليّ ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً . وللناس ان يعيشوا كما يطيب لهم . لا احب ان انصح احداً متى كانت نصيحتي بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة . ولا ان انضم الى حزب من الاحزاب . او طائفة من الطوائف . او جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا ان اساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه . واذا كان فيّ ما يلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة واللطف لا بالانذار والوعيد والتأمر . احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب السماوية . لا كسهم من الاسهم النارية

امين

بيروت في اول ايار سنة ١٩١٠

الخطب

في العزلة (١)

١

جاء في الامثال ان في الحركة بركة وليس فيكم على ما اظن من يجهل ذلك . ليس فيكم من ينكر صحة هذا المثل السائر ولا يعمل به . واما هذا الفقير فانه لا يعتقد بصحته ولا يعمل بموجبه . وقد خطر لي منذ سنين ان اعكس الآية واجري على ضدها . فقلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات . وفي القعود سعود وفي الهدو نمو وسمو . واشياء اخرى من هذا الباب ولا يخفى عليكم ان في هذه الامثال حكمة تختلف عن حكمة المثل السابق بل تختلف اختلافاً جوهرياً يحاكي اختلاف النفس عن الجسد . فالحكمة فيها روحانية معنوية وحكمة من يقول ان في الحركة بركة حكمة مادية عملية تجارية . لذلك آثرت الاولى على الثانية . فاوقفت عملي وخرجت من الوسط المضطرب لافكر قليلاً في ما انا فيه لارى اين انا من نفسي ومن الله . وحقاً اني تألمت لما وقفت متأملاً : تألمت لما رأيتني قريباً من الناس بعيداً عن نفسي وعن الحي . فتركت الحركة والبركة للعمال ولبني الاشغال وسلكت في نور الحكمة والحقيقة مسلكاً جديداً . وهذه حالة لا بد منها لكل من تنبهت فيه الروح . هي طور من اطوار

(١) خطبة القيت في جمعية شمس البر ببيروت في ١٩ اذار سنة ١٩٠٨

الفيلسوف الاولى . هي اول ريشة في جناح الشاعر هي اول حادثة خطيرة في حياة الاولياء والانبياء . هي اول عقدة روحية عقلية يعجز عن حلها اكثر المفكرين . وجدت نفسي في هذه الحالة متألماً متحيراً متردداً . تالمت كثيرا لما رأيتني في الغربة بين شعب لايعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال . وجدت نفسي في بلاد فيها الحركة دائمة متواصلة . واما البركة فيقال فيها ما يقال في بعض الامراض انها حادة متقطعة . وجدت نفسي بين قوم يأكلون ماشين . ويقرأون آكلين . ويعدون النقود راكضين . ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين . بل يقدمون ارواحهم واجسادهم ضحية لآلهة ماسمعت باسمائها العصور الغابرة . عشت زمناً بين قوم يقال انهم مسيحيون ولكنهم في الحقيقة وثنيون . وثنيون بترفهم وبطرهم . وثنيون باخلاقهم وشعورهم . وثنيون بمطامعهم واستئثارهم . وثنيون بتعدد الهتم . واما هياكل هذه الآلهة واصنامها فانك لاتشاهدها قائمة في الاسواق بل ينبغي ان تنظر اليها بعين الروح فتراها في كل حي وجماد يتحرك هناك تعال اذاً معي لاريك آلهة هذا الزمان الجديدة . آلهة هذا التمدن الحديث تعال معي لاريك من الهياكل والاصنام الواناً واشكالا . فهذا صنم من القطن لإله البورص وذاك صنم من الفحم لاله المعادن . هذا صنم من السكر لاله الحقول وذاك صنم من الخشب لاله الغابات وهاهنا هياكل من المرمر والرخام لاله التجارة وهناك الهيكل

الاكبر المشيد من حجارة الذهب والفضة لاله الآلهة. اله الامة. اله المال. والناس هناك يعدون امو الهم راكضين من هيكل الى آخر ومن اله الى اخيه . وابداً تراهم لهذه الآلهة الغريبة ساجدين. فيعبدونها ويخدمونها ويموتون في سبيلها . يعبدونها في كل حالاتهم . يخدمونها في حركاتهم وفي سكناتهم . فخرجت من بين هوءلا المشركين طالباً في البرية ربي مثل ابراهيم . خرجت من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء اذا قرب من العالم الجديد يبعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحي وعن الله. ولذلك حولت وجهي الى مشرق الشمس، وعدت في طريقي الى ارض الانبياء عدت الى وطني لاقترب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي . اي الجمال الدائم الابدي الذي لاتشينه الحالة السياسية المختلة ولا الحالة الاجتماعية المعتلة .

عدت الى مسقط رأسي باحثاً عما اضعته هناك ايام الصبا . افلتُ من اشراك التمدن والحمد لله وفررت هارباً الى الفريكة. على كتف الوادي وبالاقرب من كروم اجدادي نصبت خيامي . فوق نهر الكلب وقبالة جبل صنين رفعت رايتي البيضاء عوضاً عن العلم الاحمر الذي وضعته في يدي احدى بنات الحرية في البلاد الاميركية .رفعت علم السلم فوق فلسفتي الاجتماعية بعد ان كان علمي علم القتال وكتبت على بابي — في اصلاح الفرد اصلاح الامة وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام — .

نعم سادتي ان التهذيب خير من التحزيب والتخريب • على ان ذلك ليس من موضوعي هذه الليله فالمجال ضيق لمثل هذا البحث واضيق منه منبر هذه الجمعية •

عدت الى وطني طالباً فيه راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد • بل طالباً فيه شيئاً اشرف من كل ذلك واسمى — طالباً في الطبيعة ومنها ما ينسي المرء عقله ونفسه وجسده • عدت ياسادتي لا كما عاد يوليوس قيصر الى رومية اوهوجو الى باريس عدت قانعاً شاكراً راضياً وتذكرت السندباد لما عاد من سفراته وابا العلاء لما عاد الى معرته • فشكرت الله كالسندباد على سلامتي في الغربة ولجئت كابي العلاء الى العزلة في قريتي هرباً من الحضارة ومتاعبها وشغفاً بالطبيعة وجمالها • وحباً بالتأمل ولذّاته • وتقرباً من الله وبركاته • فدخلت هذه المدينة كما يدخل الكهان الهيكل او اللص البيت • دخلتها من باب السر فلم يدر بي من الاخوان احد • وصعدت الى الجبل ولم يدر بي احد • واقمت هناك زمناً في ظلال الصنوبر ولم يدر بي احد • فاضّجعت على العشب وراسي في ظل وزّالة زاهرة — انّا للطبيعة وانا اليها راجعون — وشكرت الله شكراً جزيلاً ووددت لو يكون بيني وبين المدن اضعاف ما بيني وبينها من الوهاد والجبال والبحار •

واظنني اخطأت مرة فرددتُ بصوت عال صدى صوت نفسي وما علمت ان للاشجار عيوناً وللصخور آذاناً • بل ما علمت ان النهر

يحمل الى المدينة صدى صوت الوادي وصدى ساكنيه . ففي صباح يوم من ايام فصل الشتاء سمعت حديثاً دار بين شجرة كبيرة من الصنوبر واخرى صغيرة او بين ام الغابة واحدى بناتها قالت الابنة : من هذا الغريب الذي لايخاف السكنى معنا في هذا الشتاء فاجابت الام : ما هو بغريب يابنيتي . وانما هو من نبات هذه الارض ومن سنديان هذه الجبال هو من ابنائنا يابنية . وقد طالما حمّلته وحملته من ثماري لما كان صغيراً . قد طالما فرشت له من ريشي وظلي ما يزيل تعب الجسد وهم الفؤاد وبعثت اليه من ارج نسيمي ما يروّح النفس ويحييها ومع ذلك فقد هجرنا زمناً طويلاً وعاد اليوم ليكفر عن ذنوبه امامنا وفي ظلنا . حبيه يابنتي فانه يحبنا .

وبمثل هذا كانت الاشجار تفشي اسراري الى النهر والنهر يحملها الى البحر والبحر يلقيها بلا اكتراث على شواطىء هذه المدينة . وقيل ان الصيادين سمعوا ذات يوم في هدير الامواج اصواتاً غريبة مطربة فظنوا ان احد الجن يكلمهم بلساننا العربي الشريف . وقيل انهم فهموا من الغاز الامواج شيئاً يسيراً واشاعوا في البلد اشاعات تحولت بعد ايام الى خرافات وخزعبلات تشير كلها الى ان في وادي الفريكة ناسكاً تسجد له الصخور وتخاطبه الاشجار وتكلمه السواقي وتستشيره الطيور . فاستغربت الخبر كما استغربه الناس وبعد ان فتشت في الوادي عن الناسك واعياني

التفتيش كتبت الى احد الاصدقاء كتاباً هزأت فيه من هذه الخرافات التي قصها البحر على الصيادين واذاعها الصيادون في المدينة فزاد الكتاب الطين بلة لان الادباء الذين سخروا مثلي بهذه الخرافات اعتقدوا بعد ئـذ صحتها وطفقوا ينشرونها في اندية الادب فتجسمت الاشاعة حتى استحالت الى خرافة واصبحت في اعتقاد الناس حقيقة راهنة . وكذلك تنشأ الخرافات وتستولي على الناس فاهتم بعض اعضاء هذه الجمعية بالامر وكتب احدهم اليّ لاصدقه الخبر . ثم جاءني من الجمعية نفسها كتاب تسألني به ان اتحفها بشيء من اخبار الناسك واسفاره . وبعبارة اوضح دعتني الى الخطابة في حفلتها السنويه منذ سنتين فلبيت الدعوة وبعثت الى الجمعية بشيء من ثمار نفس الناسك المذكور [1] ولبثت انتظر جوابها وبينما انا اتوقع منها كتاب شكر جاءني الرسول بعد اسبوع ومعه الثمار التي بعثتها . ثماري اعيدت اليّ . ردت الجمعية هديتي بلا عذر ولا شبه عذر . أرجعت الثمار واغفلت الاعتذار وبعثت مع الرسول تقول قد فحص الطبيب ثمارك فوجدها مضرة بصحة هذه الامة . وجد فيها مكروبات غريبة خبيثة عديدة فكانت هذه منها اهانة فوق اهانة لكنني قبلتها شاكراً وحسبتها من جملة ما ينبغي ان يعرض عنه المرء في عزلته . حسبتها مما ينبغي ان نترك وراءنا إذا حولنا وجهنا نحو شمس النفس الشارقة من وراء جبال

---

(١) وهي خطبة « هنا وهناك وهنالك » التالية .

الحقيقة المرسلة ما فاض من نورها فوق مروج الشعر وبحيرات الخيال . فظل الساسك والحال هذه هائماً في واديــه . ولم يدر ان الجمعية لم تزل تناديه . على انه لم يكد يرفع طرفه الى سماء الروح ويلمس بيده ما تجسم امـامه من السعادة الروحية الحقيقية حتى جاء هـذا الشتاء وفيه ما كتب له بــل عليه من الشدة والبلاء . فهجر صومعته في الجبل مضطراً واعتاض عن شذا الاودية بروائح الادوية وعــن الاوليــاء بالاطباء . مع ان الفرق بين الاولياء والاطباء قليل لا يستحق الذكر . فكم من طبيب فاضل يستحق ان يطوَّب قديساً او يدعى ولياً بعد موته . فقد تعرفت بفضل آلامي العصبية بعدد وافر من هؤلاء الافاضل وبان لي بالاختبار ما كنت اجهله . تحققت ان الفرق بين الطبيب والكاهن كالفرق بين الـكاهن والمحامي . كلهم نفعنا الله بعلمهم وبرّهم يتعاطون الجربزة. كلهم يتاجرون بشيء من الحقيقة وبكثير من الخزعبلات والاوهام . على ان الطبيب ارفع درجة من الـكاهن والكاهن ارفع درجة من المحامي . والثلاثة ياسادتي من سلالة واحدة ومن بطن واحد . نعم ان الطبيب والكاهن والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . ومن الشرور ما كان لازماً للبشر . من الشرور ما هو نافع للانسان . وقد كنت اسير شيء منها في هذه المدينة لما جاءني رئيس هذه الجمعية فأسرني ايضاً بلطفه وجميل ادبه وكلمني مرةً اخرى في امر الخطـابة . الحَّ عليَّ الرئيس وعدد من الادباء

باسلوب جعلني اظن ان الجمعية تنوي ان تحاصرني في الفريكة وتعقد جلستها هناك اذا كنت لا اتكلم في حفلتها هنا . فخففت من المضايقة في عزلتي ونتيجة خوفي ايها الكرام وقوفي امامكم الآن خطيباً . عفواً سادتي ما جئتكم خطيباً الليلة بل محدثاً . وسأحدثكم في موضوع العزلة ومنافعها ومضارها .

٣

العزلة اما داء واما دواء واما غذاء . هي داء لمن لا يجد في نفسه ما يغنيه عن معاشرة الناس ولو زمناً قصيراً . وهي دواء لمن سئمت نفسه من ملاذ هذا المجتمع وموبقاته من سروره وشروره فيعود الى امه الطبيعة لتداويه بنور شمسها وعليل هوائها وشذا رياحينها وهي غذاء لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة من محيط هي غريبة فيه . يعتزل الناس طالباً في الطبيعة الراحة التي لا يعرفها الناس . واللذات التي لا يشعر بها الناس . والتعزية التي قلما تعزي عامة الناس . نفس الاول خامدة جامدة . ونفس الثاني سقيمة عقيمة نفس الثالث من الانفس السامية الكبيرة التي قلما تنام . فهي تفيق من هجعتها قبل صياح الديك فتفتح عينيها في ظلمة الليل الحالكة وتقاسي قبل بزوغ الفجر من العذاب والحيرة اشدهما . تبتدىء هذه النفس بالمقاومة والتمرد فتقاوم القوات التي تعترضها في طريقها وتتمرد علي كل من يحاول ابقاءها في الظلمات الدامسة . تسير بنور مصباحها الداخلي الى ان يخرج من الظلمات بفضل ما فيها

من الشجاعة والاقدام والثبات فتتدرج من الظلمة متمردة الى العزلة هادئة وتعاني فيها بادئ بدء نوعاً جديداً من العذاب . تعاني هناك عذاباً هو اسّ كل لذاتها الروحية بل هو العذاب الذي يقاسيه من تعودت اعصابه المخدرات والمسكنات اذ ينقطع عنها دفعة واحدة . ومن العزلة تعود هذه النفس المحررة المستنيرة المتمردة الى المجتمع لتتمم فيه ارادتها لتنير ولو زاوية صغيرة فيه بما فاض من نورها .

شبهت الانقطاع عن الناس بالانقطاع دفعة واحدة عن المسكنات التي يعتادها المريض . فهل خطر لأحدكم ان يستشير ربه بواسطة الطبيعة في امر روحه المريضة كما يستشير الطبيب في امر جسده . ايدهشكم قولي لكم اننا كلنا مرضى بوجه ما . وفي هذا المجتمع وخصوصاً في هذا اليوم بما فيه من دواعي الامراض والهموم والاحزان تنسينا الحركة الدائمة آلامنا . ولا اذكر الآن اي علماء الالمان قسم الناس الى ثلاثة اقسام فقال : قسم منهم يولد للمستشفى وقسم للمرستان وقسم للبادية . اي ان ذلك العالم الالماني يقول ان الناس اما مرضى واما مجانين واما برابرة ومع ما في هذا القول من الغلو والضلال والكفر — اذ كفر العالم بالنفس واساء فهم نواميس الطبيعة وغالى في تقبيح الانسان — مع ما في قوله مما ذكرت فهو لا يخلو من الحقيقة . غير انها حقيقة ناقصة متجزئة واما الحقيقة كلها الحقيقة الشاملة الابدية فهي ان الناس كلهم

سواء من وجهة الفيلسوف . ومن هذه الوجهة ايضاً يمكننا ان نقسم البشر الى قسمين اوليين . قسم الاحياء روحياً وقسم الاموات . وهاتان الطبقتان نشاهدهما في كل شعب حضرياً كان او بدوياً . ففي البداوة اناس تتنبه فيهم الروح وتنهض من سباتها كما في الحضارة . بل في البدو تبلغ الروح المتفردة الكبيرة اعلى درجة من السمو والقوة والجمال . فيخرج من البادية رجال كما يظهر في المدن رجال . وان نبغ في نويرك المخترعون وفي لندرا العلماء وفي برلين الفلاسفة وفي باريس الشعراء وفي فلورنسة المصورون والنحاتون ففي البادية ينشأ الانبياء . لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة . وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن أرضها . فيها شيء من تبر وطنها ومن ترابه . من خير هوائها ومن شره . من فتوره ومن نشاطه . من هدوءه ومن هياجه . فالناس اذاً كلهم سواء من وجهة الفيلسوف . الانسان واحد من بلاد الزولو الى شطوط النروج ومن ثلوج السكا الى اطراف اليابان . الناس كلهم سواء من حيث ان الامراض والجنون والتوحش كلها تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة . ولا يفوتنا ان نذكر مع هذه الشدائد كلها نعمة واحدة شاملة . فانا ممن لا ييأسون ولا يقطعون الرجاء مهما توغل الانسان في الجهل والجنون والتوحش لانني على يقين ان النفس في كل منا تفيق ولو مرة واحدة من سباتها في سياحتها هذه العالمية .

تنهض النفس من غفلتها فتجيء ولو بعمل واحد شريف خالص لوجه الله . ترينا من النخوة والمعروف والاحسان مايزيل عن وجه الحياة شيئاً من تقطبه وعبوسته . تنهض النفس من ظلماتها من تحت اثقالها المادية . من بين اغلالها الاجتماعية . من تحت اهوائها وشهواتها واغراضها الذميمة لتقول للناس : — انني لم ازل حيةً واعرف معنى الحب والتساهل والحنان . انني لم ازل حيةً واعرف معنى الحق والعدل والحرية . فيمكنني ان اتسامى الى ما فوق الشرف المتعارف بين الناس . الى ما فوق الفضيلة المصطلح عليها . الى ما فوق القوانين والشرائع . الى ما فوق قداسة الاديان وخزعبلات بدعها . اي لا بدَّ لكل امرء من ساعة ولو في حياته كلها يظهر فيها بمظهر الفضيلة الصادقة الفضيلة المجردة النامية الحقيقية فيخضع للنفس الامارة بالخير لا بالسوء لتظهر فيه محاسنها الجليلة ولذلك ينبغي ان نقول ان الامراض والجنون والتوحش وحسنات النفس او يقظاتها تنتاب كلاً منا على الاطلاق . تنتاب كلا منا في اوقات مختلفة كما قلت وبدرجات متفاوتة . ومن هذه الوجهة المرتفعة وجهة الفيلسوف العمومية كلنا لاشك متساوون . اي اننا كلنا مرضى بنوع ما وكلنا نتخذ الاشغال نلهو بها . نسكّن بها آلامنا . نخدر بها همومنا . نضمد بها جروح صبرنا ورجائنا . ننعش بها آمالنا . وعند مايقف احدنا ليتنفس قليلاً ليتنشق نسيم السحر الجميل او بالحري ليدع عمله هنيهة ويستريح تعاوده

آلامه مضاعفة كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاء فعل المرفين وماهي هذه الآلام ياسادتي ؟ اروحانية هي ام جسمانية ؟ فالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية. والحقيقة ههنا اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب. آلامنا روحية اكثر منها جسدية. يعود الرجل من اشغاله في المساء اومن ملاهيه بعد نصف الليل فيستلقي على سريره متكرهاً متأففاً متذمراً. فيشكو وقد خارت قـواه من الم في اعصابه او في معدته او في رأسه. ويظن ان اوجاعه موضعية. يظنها جسدية. والحقيقة على ما ارى هي خلاف ذلك. فالجسد لايمرض من العمل واعضاؤه تزداد قوة ومرونة ونشاطاً بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي. من اين اذاً آلامنا واوجاعنا. ماهي اسبابها اين مصدرها. ايمكن ان يكون لها مسبب غير مادي. ايمكن ان تكون آلامنا الجسدية ناتجةً عن ألم اصلي اساسي جوهري روحي ؟ سؤال اجيبكم عنه حالاً بلا تردد وبالايجاب. نعم سادتي وسيداتي ان مصدر هذه الآلام الروح فالروح منا تئن وتتأوه وصدى انينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا. الروح تتألم من الضغط عليها. من احتقار الانسان اياها. من اهماله شؤونها. من اهتضامه حقوقها. الروح تتأوه من قيود السلطة كما انها تتألم من قيود العبودية. فالرئيس والمرؤوس سواء من هذا القبيل. الظالم والمظلوم يشكوان من مرض واحد فالروح في كلٍّ منهما تتألم من حيوانية الانسان

الخبيثة . من اهوائه من ظلمه من استشاره من بغضه من تحشد
من ذله من جهله من جنونه . فاذا كانت الاشغل تسكن آلام
النفس فالعزلة تضعف شوكتها . ويستأصلها العود الى الطبيعة .
ورب قائل يقول اتريد ان يكون الناس كلهم نساكاً وزهاد
و كيف يتسنى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب .
فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة القاموس وتوسعت قليلاً بمعناها
المحدود . فقد تكون شوقاً في النفس لسبر غور النفس . لادراك
كنه قواها . لكشف الحجاب عن بعض اسرارها . وهذي هي عزلة
الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال
فراراً من مسوءلية الحياة الاجتماعية وواجباتها الصناعية . وهذي
هي عزلة الشاعر . وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في
الصحراء او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو
دائماً فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طمعاً في النفس بفتح
ممالك عالم النفس . ورفع اعلام الحقيقة والحب والحق فوق صروحها
وهذه عزلة الانبياء . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا
ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليه حين قال المتنبي بيته المشهور
في وصف الاسد

في وحدة الرهبان الاّ انه لا يعرف التحريم والتحليلا

قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس
وعنها . وكما ان النفس تطلب المعرفة فكذلك تبتغي شيئاً من

آلامه مضاعفة كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاء فعل المرفين وماهي هذه الآلام ياسادتي ؟ اروحانية هي ام جسمانية ؟ فالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية. والحقيقة ههنا اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب. آلامنا روحية اكثر منها جسدية. يعود الرجل من اشغاله في المساء او من ملاهيه بعد نصف الليل فيستلقي على سريره متكرهاً متأففاً متذمراً. فيشكو وقد خارت قواه من الم في اعصابه او في معدته او في رأسه. ويظن ان اوجاعه موضعية. يظنها جسدية. والحقيقة على ما ارى هي خلاف ذلك. فالجسد لايمرض من العمل واعضاؤه تزداد قوة ومرونة ونشاطاً بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي. من اين اذاً آلامنا واوجاعنا. ماهي اسبابها اين مصدرها. ايمكن ان يكون لها سبب غير مادي. ايمكن ان تكون آلامنا الجسدية ناتجة عن ألم اصلي اساسي جوهري روحي ؟ سؤال اجيبكم عنه حالاً بلا تردد وبالايجاب. نعم سادتي وسيداتي ان مصدر هذه الآلام الروح فالروح منا تئن وتتأوه وصدى انينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا. الروح تتألم من الضغط عليها. من احتقار الانسان اياها. من اهماله شؤونها. من اهتضامه حقوقها. الروح تتأوه من قيود السلطة كما انها تتألم من قيود العبودية. فالرئيس والمرؤوس سواء من هذا القبيل. الظالم والمظلوم يشكوان من مرض واحد فالروح في كلٍّ منهما تتألم من حيوانية الانسان

الخبيثة . من اهوائه من ظلمه من استشاره من بغضه من توحشه من ذله من جهله من جنونه . فاذا كانت الاشغال تسكن آلام النفس فالعزلة تضعف شوكتها . وتستأصلها العود الى الطبيعة .

ورب قائل يقول اتريد ان يكون الناس كلهم نساكاً وزهادا وكيف يتسنى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب . فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة القاموس وتوسعت قليلاً بمعناها المحدود . فقد تكون شوقاً في النفس لسبر غور النفس .لادراك كنه قواها .لكشف الحجاب عن بعض اسرارها . وهذي هي عزلة الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال فراراً من مسوءلية الحياة الاجتماعية وواجباتها الصناعية .وهذي هي عزلة الشاعر . وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في الصحراء او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو دائماً فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طمعاً في النفس بفتح ممالك عالم النفس . ورفع اعلام الحقيقة والحب والحق فوق صروحها وهذه عزلة الانبياء . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليه حين قال المتنبي بيته المشهور في وصف الاسد

في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلا

قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس وعنها . وكما ان النفس تطلب المعرفــة فكذلك تبتغي شيئاً من

العزلة تتغذى اثناءها بالمعرفة . يقول الافرنج في السياحة تكملة التهذيب. اي ان المرء مهما درس وطالع وتعمق في العلوم وتغلغل فتهذيبه يظل ناقصاً اذا كان لا يعرف من العلم الاّ مسقط رأسه او عاصمة بلاده . فاذ كان في السياحة تتمة التهذيب ففي العزلة تتمة السياحة . لان المرء لايكون قد ساح ابداً اذا كان لايعتزل قليلاً بعد سياحته في العالم ليحاسب نفسه . ليفحص بتأنٍ وهدوء ما يخادعها . ليغربل مافيها من الحقائق والخرافات والآراء السديدة المختلطة مع الخزعبلات . وبكلمة اخرى ليسقي النفس من ماء الفكرة الذي يتقطر ويتكرر في العزلة . ولا تظنوا ان كل من التجأ من المفكرين الى هذه الطريقة انتفع بها والذي لا ينتفع منها لا يستطيع نفع الناس .

لما كنت في نويرك قصدت يوماً مدينة كنَكُرْد بالقرب من بُسْطُن (وهي المدينة الصغيرة التي اتحفت العالم الجديد باكبر شعرائه وفلاسفته) لازور فيها بيت الفيلسوف أمِرسُن والحرج الذي بنى فيه الشاعر طورو مسكنه او بالحري كوخه للعزلة فعاش فيها متنسكا سنتين والف هنالك كتابه النفيس في فلسفة العمران وفلسفة الانفراد . والكاتب الذي كان رفيقي ودليلي في هذه الحجة — وهو شيخ جليل في الصحافة وفي السن — كان رفيقاً اوصديقاً ايضاً لاكثر شعراء كنكرد وفلاسفتها الغابرين فسألته عما اذا كان في المدينة اليوم من يعدُّ من طبقة هؤلاء الرجال العظام

فقال ان الطبيعة ياصديقي لا تجود علينا بالنوابغ كل سنة فهي لا تقدم للعالم الاّ افراداً قلائل كل عصر وما كل من اعتصم بالعزلة يصل الى ذروة التفرد والذكاء فمنذ سنين جاء هذه الاصقاع شاب انكليزي واختار بيت طورو هذا مقراً لعزلته وعاش فيه كما عاش طورو سنتين ولكنه يئس بعد ذلك وهجر كركرد ومن ذلك الحين لم نسمع عنه شيئاً .

فعزلة طورو اذاً او عزلة النابغة اثمرت من الادب والشعر والفلسفة ما يعد من طبقة ما كتبه اكبر نوابغ العالم . وعزلة الثاني العقيمة اضرّت بصاحبها لانه لم يتدارك الخطر قبل حلوله وفاته ان الوحدة الطويلة الامد ما اعدّت لمثله وان نفسه لا تطلب مثل هذا الغذاء . لذلك لا اعمم في قولي ولا اغالي بمحاسن العزلة ومنافعها اذ ما كل من اعتزل تفرد ولا كل من تفرد افاد الانسانية . على ان العزلة تنفع الكل اذا اخذ منها كل بقدر ما تطلبه نفسه او بالحري اذا عرف كل انسان كمية الجرعة التي ينبغي ان يأخذها فمن نفس متجمدة لا تطيق العزلة اكثر من اسبوع الى نفس متوقدة لا ترضى باقل من سنة او اكثر وبينهما تتفاوت المدد كما تتفاوت العقول . هذي هي القاعدة . فمن جرب العزلة بحكمة واعتدال انتفع ولا شك منها فهو ينتفع عقلياً وجسدياً وروحياً اذا احسن استعمال الدواء .

وافضل ما في العزلة للمفكرين انها تقرب الفرد من نفسه .

فالحياة الاجتماعية كما اتضح لكم مما ذكرته تبعدنا عن انفسنا حتى نجهلها جهلاً فاضحاً . لان معرفة المرء نفسه غير ممكنة في اي حال من احوال هذا المجتمع المضطرب . واذا جهل المرء نفسه بعد عنها بعداً شاسعاً . وان حاول خدمة الانسانية وهو بعيد عن نفسه اي جاهلها لا يستطيع الى ذلك سبيلاً مهما اجاد بيانه وفصاحته ومهما بالغ في آرائه واكبر الناس دعواه . لا خير في مثل هذا مهما صاح ونادى ودعا القوم وادّعى . وان صياح المصلحين ليذكرني دائماً بهدوء الفلاسفة . بل يذكرني بما جاء في التلمود من حديث دار بين اشجار الغابة واشجار البستان قالت اشجار الغابة لأشجار البستان : لماذا لا نسمع لاغصانك صوتاً ولا صدّى فاجابت اشجار البستان : لانني مشتغلة عن الولولة بانماء ثماري . ثم سألت اشجار البستان اشجار الغابة قائلةً . ولماذا نسمع لاغصانك هذا الدوي وهذه الجلبة فاجابت اشجار الغابة : لكي يشعر الناس بوجودي .

لذلك قلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات وفي الهدو نمو وسمو . فالنور ياسادتي ينبثق على العالم هادئاً ساكناً . وان شمس الحكمة تحتجب غالباً عند هبوب العواصف والزوابع فمن الانفس السامية المتفردة الهادئة ينبثق نور الحب ونور الحكمة ونور الحقيقة . وفي الانفس السامية المتفردة الهادئة ينابيع الجمال كلها . جمال الفنون وجمال الروح وجمال الحياة السعيدة .

والى الانفس المتفردة السامية الهادئة تعود حسنات التمدن الحديث لترينا فيها اسبابها . لذلك كتبت فوق بابي :

في اصلاح الفرد اصلاح الامة

وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام



هنا وهناك وهنالك[1]

ايها السادة والسيدات .

دعي مرة اديب للخطابة في حفلة مثل هذه فلبى الدعوة فرحاً مسروراً لانها كانت اول ما جاءه من القوم وكان الخطاب باكورة عمله فسوّد الاوراق وبيضها واستعد لخطابه استعداداً يليق بوقفته الاولى على المنبر . ولكن لما وقف امام القوم خانته الحافظة وجمحت القريحة فاعتذر قائلا : لما دخلت هذا المنتدى لم يكن احد يعرف من خطابي شيئاً سوى الله والداعي واما الآن فبأسف اخبركم ان لا احد يعرفه سوى الله . فاستحسن الحاضرون النكتة وعفوه من الخطابة . ولا تظنوا رعاكم الله ان الكلام الذي اعددته انا لهذه الحفلة لم يطلع عليه قبل هذه الساعة سوى العالم بذات الصدور كلا . فقد اضطرني اصدقائي الى مراعاة اصطلاحات البلاد وقالوا ابعث ابنك هذا الى المستشفى بلا عناد . فبعثته بعد ان دسمته من العين . وقرأت عليه التعويذتين وهناك استلمه مولانا الطبيب وكنى بذلك تلميحاً لابيب . وعاد اليّ بعد ايام حسبتها سنين . وعلى بدنه اثار المبضع والمشرط والسكين . فتصافحنا وكلانا يقول الحمد لله رب العالمين . ويجب ان اقف عند هذا الحد في التسجيع

(١) وهي الخطبه التي اعددتها لحفلة جمعية شمس البر السنوية في السنة الاخيرة من عهد عبد الحميد فرفضتها اللجنة خوفاً من المراقبة .

والكنايات خوفاً من ان تحسبوني اتلو عليكم شيئاً من سجع الكهان او مقامة من مقامات بديع الزمان. وقد يتبادر لذهنكم اني اوردت القصة ليكون حظي منكم حظ ذلك الخطيب من قومه ولكنني لا اطلب كل هذا . انا ادفع الآن نصف ما عليّ من الدين لهذه الجمعية بشرط ان تعفوني من النصف الآخر ولكني اعدكم بدفعه مع الفائدة متى تحسنت الاحوال على انني اود لو كنت مطلق الحرية لادفع كل ما عليّ الآن . ان قوتي يا سادتي في حريتي لا في شعري اود لو تكون وقفتي هذه الاولى امام قومي في وطني غير مقيدة بقيود التقية والاحوال . ولكن لسان الحال افصح من لسان البيان وقد تكون الكلمة المحفوظة في الصدر اشد تأثيراً في النفس من الكلمة المقولة

لقيت على شاطيء البحر وانا قادم ذات يوم الى المدينة شيئاً ذكرني بما يليق ان افتتح به هذه الكلمات القليلة التي تحوم حوماً حول موضوع يتعوذ من ذكره الناس. ذكرني ما لقيته على ساحل هذه البلاد السورية وسأخبركم عما لقيته بعدئذٍ او لكم ان تنبهوني اذا فاتني ذلك . ذكرني بمدينة في البلاد الاميركية قضيت فيها خمس عشرة سنة بين قومي والاعجام فلم امل كل الميل الى اولئك الاميركيين ولم اهجر كل الهجر اخواني السوريين . لم يكن جفاء قومي ليقربني من الاعجام ولا اكرام الاعجام ليبعدني عن قومي . ولقد سمعت من اصدقائي الشعراء الاميركيين من الكلام ما

يضعف الشواعر الوطنية لو كان فيّ لمثل هذا الضعف استعداد ٠
وقد قال لي احدهم مرة بعد ان قرأ في احدى الجرائد الاميركية
خبر قيام النزالة السورية عليّ بسبب كتابي الاخير دع ذكر الوطن
والامة والزم الشعر . الشاعر الحقيقي هو ابن العالم على الاطلاق
وكل وطن صالح هو وطنه ٠ فرنت هذه الكلمات في اذني ولا سيما
لان الناصح كان شيخ في السن وفي صناعته ٠ وهجرت اذ ذاك
قومي الى حين ونفضت عن اوراقي غبار لغتنا هـذه الشريفة
واخذت انظم في اللغة الانكليزية وانقل الى الاعجام ماعثرت عليه
من كنوز العربية ٠ وثبت عندي اذ ذاك ان الشاعـر الحقيقي
يخلص الخدمة لوطنه اولاً ومن ثمّ يتدرج الى خدمة الانسانية ٠
او يخدم الوطن والانسانية معاً اذا كان من النوابـغ الحقيقيين
النادرين في كل امة وبلاد ٠ وبعـد ان فكرت في امري هذا
وسمعت المباحثة التي جرت بـين ذاتي السوري وذاتي الاميركي
حكمت للاول على الثاني ورضيت ان اكون من الطبقة الاولى
في الوطنية ولو جعلني ذلك في الطبقة الوسطى من الشعر ٠ وهكذا
عدت الى الكتابـة من اليمين الى الشمال ولكنني حفظت في
قلبي زاوية للغة التي اكتسبتهـا في العالم الجديد ٠ ولو اصغت الى
قول صديقي الشاعر الاميركي لما كنت ظفرت بمشاهدتكم هذه
الليلة ولكم ان تعكسوا ٠ نعم ان ولعي بلغتي وبوطني لقوي شديد
ولو سألتموني ايراد الاسباب التي توجب هـذا الولع لقلت لكم

احب لغتي لانني احب نفسي واحب وطني لانني احب قـومي وقد يحملني هذا الولع والحب الى الغلو احياناً • فقد قرأت مرة ان غالينوس كان يقول اجود هواء في الدنيا هواء بلاد اليونان. وقال ابن رشد ان اجود هواء لهواء قرطبة (بلده) وقال ملتن ان الهواء النقي المحيي لا يهجر ابداً لندره واقول انا واظنكم كلكم تقولون معي ان هواء لبنان لهو نفَس الآلهة بالذات • وكلنا لا شك مصيبون وما غلوي انا الا جزء من غلو اولئك الفلاسفة الكرام • هذه الثمرة من تلك الشجرة • ولكن حبذا هواء لبنان وبئس المتنشقون • حبذا ماء الجبل وبئس الشاربون • لا والله هذا كثير . لا يجب ان الوم اللبنانيين ولا ان أوآخذهم بما هم عليه من الجمود والانحطاط والاستكانة والضعة . فالاكليروس وشيوخ القرى راضون عن مثل هذا الانحطاط والخمول ويجب ان يرضى المقلقون بما يرضي شيوخ القرى والاكليروس • يجب ان نرضى ونسكت • ولكن اذا نحن سكتنا فالمهاجرون لا يسكتون • اذا نحن رضينا فالمهاجرون المقلقون لا يرضون • نعم لابد ان تشرق علينا شمس العلم والترقي من المغرب كما تشرق علينا شمس الله من وراء جبل صنين . لابد ان يشرق على سوريا قمر الاصلاح من وراء البحار مثلما يشرق عليها قمر السماء من وراء جبل الشيخ . لابد من التقاء الشمسين واجتماع القمرين وقد يتأخر قمر المغرب الى الهزيع الاخير من الليل . فاتنم الامة مطمئنة اذاً • ولكن اذكروا كلامي • لابد من ان تعاينه

ذات ليلة من ليالي تموز وهو شهر جليل الذكر عند اعظم جمهوريتين في العالم .[1]

واني لأذكر يوم وقفت امام قومي في اميركا فذكرت قومي في الوطن وها انا الآن امام نخبة من قومي في الوطن العزيز اذكر قومي في اميركا فتحلو لي الموازنة بين الشعبين اذا لم اقل بين البلادين ولكن الوقت قصير والحبل اقصر . فمتى ياترى يعود المهاجرون المنورون الى الوطن . وافطنوا انني لا اريد سوى المنورين واما ما بقي من المهاجرين فسواء على الوطن أعادوا ام لم يعودوا فهم لاينفعون . الامة بافرادها لا بجرادها . ولكن حتى م هذا الانقسام وهذا التشتيت وكيف تصان وتتعزز الوطنية والمنورون من السوريين ضاربون في اربعة اقطار العالم تائهون في فيافي النزاع والجدال — فتراهم قائمين بعضهم على بعض في كل صقع وفي كل قطر وفي كل بلاد . الشعب السوري في المهاجر جاهل ولكنه ناهض عامل . والشعب السوري في الوطن منور الى درجة ولكنه متقاعس متغافل . هناك ترى السوريين في هرج ومرج وشغب ونزاع وجدال وقتال . تراهم ابداً قائمين قاعدين ضاربين شاكين . وهنا تراهم الى السكينة والاستكانة مخلدين . هناك تضعف الوطنية ويقوى التعصب الديني من عوامل

(١) ليطمئن انبياء اليوم بالاً فان صدق نبوءتي هذه لا يطمعني في ان انافسهم وقلما يدعي النبوءة من تصدق نبوءاته .

خارجية . وهنا قد ينتج ذلك عن عوامل داخلية . هناك نهاميون وزرازرة من الاكليروس عاكمون على جمع المال عاملون على اثارة الفتن . وهنا – ولكن قد فاتني ان البحث في شؤون ذوي الرئاسة محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد . هناك صحافة عربية نمت في ظل الحرية فوافقها الهواء الى حد ان صارت صحتها فيه بلية . وهنا – ولكن الصحافة بنت الزرازرة والنهاميين فكما راعينا خاطرهم يجب ان نراعي ايضاً خاطر ابنتهم هذه العانس الفضفاضة الوهنانة . الصحافة السورية في اميركا وما ادراك ما هي . سطور تلمع من خلالها الخناجر والحراب واعمدة تطفح بالحامض الكبريتيك . واما هنا فعندنا زنابيل من القش ملؤها قطن منفوش وبخور يحرق في مجامر التدليس حول الارائك والعروش . ولكن قد فاتني ان الخوض في امور السياسة محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد . هناك قوم يقدمون على غير هداية . ويخبطون خبط العشواء في البداية . وهنا كرام يرون البقاء في الخيام . خيراً من الهيام في الظلام والجمود خيراً من التطواف خارج الحدود . هناك حرية يرافقها بطر واشر وحماقة . وهنا تهذيب ناقص يتراوح بين المراءاة واللياقة . ويسير مستسلماً مكتئباً من الخمول الى الذبول . هناك قيل لا يتبعه عمل وهنا لا قول ولا عمل . ولعمري هذا الاخير احسن من ذاك . هناك ضجة وقعقعة وضوضاء وهنا هدوّ وقناعة ورخاء

هناك صحافيٌّ يقارع كاهناً وكاهن يصارم صحافياً وهنا . — كاد يطيش السهم ثانية او بالحري كاد يصيب كبـد الحقيقة لو لم تَرده هـذه الجمعية الزاهرة بجن التحظير : هنا وهناك وهنالك — وهل ينطق من في فمه ماء ؟ نعم كدت انسى ما وعدتكم به . ماذا تظنون لقيت على شاطئ البحر ؟ اسمكة من ذهب او صدفـة من الندى المتجمد على الصخور او لؤلؤة صفراء او مرجانة بيضاء او بنتاً من بنات الامواج الزرقاء اللائي يحلم ويهيم بهنّ الشعراء او شيئاً اندر من كل نادر تحت السماء ؟ لا لا . ما لقيت شيئاً من هـذا . ما لقيت على شاطئ البحر سوى الامواج ثم الامواج ثم الامواج . وهذا من مثل كلام المتصوف الذي يختلي بنفسه ويقول : قد وجدت روحي قـد لقيت ذاتي ولك ان تسأل هل كانت روحه قدس الله سره ضائعة ام كان هو محجوب عن نفسه . ولكنني اعجز عن الجواب لان الله لم يفتح عليَّ في مثل هـذه الامور . ولهؤلاء المتصوفين ضروب من الكلام لا نلحنها نحن العوام . غير اني اهديك الى القشيري والسهروردي اذا كنت لا تخاف ان تضيع في براري شطحاتهم وسرادب اسرارهم . واذا اغلق عليك هناك فاليك فلاسفة الالمان الروحيين او براهمة الهند القانتين . واما كلامي فكلام شاعر مفتون . لا كلام متصوف مغبون . نعم ما لقيت على شاطئ البحر سوى الامواج القائمة القاعدة المرغية المزبدة الهاجمة الهائجـة . سوى الامواج تلاعب

الرمل فتترك عليه اثر حنين البحر الى ما خرج من بطنه من سواحل وسهول وجبال . لقيت هذه الامواج او بالحري لقيت فكراً صغيراً في موجة صغيرة منها جاءت تلثم قدميّ ضاحكة وعادت الى حجر امها راغبة راضية . ففكرت في نفسي اذ ذاك وقلت . أليست هذه الامواج من ذات البحر الذي تتلاطم امواجه حول جبل طارق ؟ او لا تنقل امواج البحر الواحد من مكان الى آخر في مدار الليالي والايام فتسافر الموجة الواحدة الى سواحل سوريا كما تسافر بواخر الميساجري ماريتيم . او لا تمتزج امواج البحر المتوسط بامواج البحر الاتلنتيكي عند مجتمع البحرين . او لا تسافر الامواج من مرفإ نويرك الى جبل طارق ومن ثم الى سواحل اسيا الصغرى ؟ اذن — وها قد وصلت الى بيت القصيدة - ما الموجة التي لثمت قدمي الا رسول خير من بلاد العلماء الى بلاد الانبياء . ما هي الاموجة واحدة صغيرة من بحر النور والهدى يقذفها المغرب الى المشرق . ان هي الاموجة من امواج العقل والحجى يسوقها الله الى بلد ميت فيحييها بعد موتها . ان هي الا موجة من امواج النفس البشرية النبيلة تحملها الرياح والاعاصير الى المستضعفين المستذلين من العباد في كل بلاد ان هي الاموجة من امواج الحب والحنان يشحذ بها الاصفياء الاحرار عزم اولئك المنقادين للهوان المستسلمين للامتهان . ان هي الا موجة من الامواج التي تغسل قدمي الهة الحرية الرافعة

نبراسها في مدينة نويرك العظمى واني لاقول لكم الآن لا بد ان يرى المستقبل مثل هذا التمثال الجليل الجميل في كل مدينة كبرى من مدن الشرق الاقرب والاقصى . واذ لم يكن تمثالاً من نحاس اصفر او رخام ثمين. فتمثال من نور في قلوب الوطنيين وهذه شبه نبوة بيد اني قصير الباع في هذه الصناعة ولكن قد جاء في الحديث الشاعر جزء من ستة واربعين جزءاً من نبي. ولعل احدكم يقول قد جاء ايضاً والشعراء يتبعهم الغاوون وهم في كل واد يهيمون . نعم قد سمعت هذا الحديث ولكنني لا اسألكم ان تتبعوني . اذكروا فقط كلامي . ودعوني واحلامي .



الحرية والتهذيب (١)

ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ أُستضعفوا في الارض
ونجعلهم أئمَّةً ونجعلهم الوارثينَ (سورة القصص ٤)

ايها الوطنيون

انتم المستضعفون في الارض وانتم ان شاء الله الوارثون . ويشهد على ذلك نير ماضيكم وحرية حاضركم . يشهد على ذلك ظلام امسكم ونور يومكم . فانتم المفلحون والمحررون بفضل زعماء الآراء الحرة وبفضل الجند العثماني الذي سيبرهن لاوروبا اليوم ان الشرق لم يزل منبت المعجزات . ففي الماضي كانت معجزاته دينية واليوم معجزاته سياسية . بالامس دهشت دول اوروبا بالمعجزة التي اتتها اليابان واليوم تدهشها المعجزات السياسية والاجتماعية في دولة بني عثمان . فاوروبا لا تعرف حتى الآن معنى الثورة السلمية وما رأت بين شعوبها المتباينة عناصرها السياسية والمتضاربة مذاهبها الاجتماعية مثلما يسود اليوم في امتنا من التساهل والمساواة والاخاء (٢) وهذا هو النور الذي ينشق من الظلام . هذه وردة الوئام التي تنبت على ضريح الشقاق والخصام

(١) القيت في حفلة من حفلات الدستور

(٢) واذا ماراني القانطون من الحال الحاضرة اردهم الى المستقبل

هذي هي الحرية التي تشيد الامة هيكلها في روضة الالفة والسلام .

جاء في بعض الاسفار ان الاطباء الاقدمين اكتشفوا العقاقير القتالة قبل العقاقير الشافية . و كذلك يصح ان يقال في حكومات العالم باسرها فالقتالة منها وجدت قبل الشافية . ولا فرق بين ان تكون الحكومة ابوية كما في الصين او اميرية كما في الهند او استبدادية كدول اشور ومادي وفارس او كحكومة الروس بالامس فكلها من الادوية القتالة التي يسقيها الحاكم المحكوم ليقتل فيه الروح ويتمكن من ارهاب الجسد وتسخيره واستعباده . فالظالم مجرم اياً كان . والحكومة الاستبدادية ذاهبة الى البوار في كل مكان . ولنا في حكومتنا على هذا اقطع برهان فبالامس كانت الامة العثمانية تتقلب على فراش الموت واليوم تمرح فرحة تحت سماء الحياة وفي ظل الحرية والدستور . لنهنيء انفسنا اذاً لاننا عشنا والحمد لله لنرى الظلم مدرجاً بكفنه والاستبداد هاوياً الى الجحيم .

بالامس كان خطيبكم يتسنم المنبر فيجمجم الكلام ويوريه ويلغز ويرمز . ويعقد مقاله ويلويه . لتخفى على جواسيس الحكومة معانيه . واليوم نراه كما لو كان في باريس او في نيويرك يصدع بالحق ويجاهر مصرحاً بارائه ومبادئه . والفضل في ذلك عائد الى زعماء النهضة الاصلاحية النظريين . والى زعمائها العلميين . والى الرئيس الاكبر الذي انتهت اليه مطالب هؤلاء العثمانيين . بل الفضل عائد

الى كل من حرك قلما لبث روح الحرية والدستور . والى جلالة السلطان الذي كلل النهضة بالنور فصان الدولة من الخطوب والمحن وخلص الامة من الهزاهز والفتن . فالامة التي كانت امس اسيرة ظلمه اصبحت اليوم اسيرة فضله . وقد يكون الآسر اكبر من الاسير ولكن العاتق ياسادتي اكبر من الاثنين فالسلام اليوم على عبد الحميد . والسلام على عهده الجديد . سلام على عصر الحرية المجيد . (١)

* * *

وجدير بنا بعد هذا التشبيب . الذي لا بـد منه للخطيب . البحث في ماهية الحرية واصولها باختصار يوجبه الوقت والمقام . فالحرية اليوم كلمة تملأ افواه القوم . الحرية جمال يزدهي في اعمدة الصحافة واندية الامة . الحرية مجد انسى التجار اشغالهم . والاتقياء فروضهم وانفالهم . الحرية الهة هجرت الامة معابدها لتعبدها . كل ذلك جائز . كل ذلك حسن ان لم يكن مفيداً . ولكنني في كل ما قرأته في الجرائد لمن كتبوا وخطبوا ما اطلعت على كلام في الموضوع حري بالنظر والاعتبار . وقد يكون فاتني في عزلتي كثيراً مما كتب وفات الشعب في ابتهاجه وهوسه اكثر من ذلك .

---

(١) وذنبي صغير بالنسبة الى ذنوب الشعراء في هذا المقام . ثلاث تسليمات يغفرها الله ولكن الثلاث مائة قصيدة . . . سبحان من لا تخدعه الحوادث سبحان العالم بذات الصدور وبخفايا الدستور

لان المعقولات في مثل هذه الايام تلفت انظار الناس والبحث الفلسفي في الموضوع لا يروق الشعب ولا يلائم الزينة في المدينة على انني دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة الشائقة فينبغي لي ان اقول الكلمة التي يوجبها العلم ويقتضيها الضمير ويؤيدها الاختبار ولكم ان تنبذوها بعد ان تسمعوها او تزرعوها فتستثمروها .

كل انقلاب في الحكومات لا يسبقه انقلاب في الافكار والآراء لا يرجى منه كبير فائدة . فالحرية السياسية جميلة واما وحدها فمنافعها قليلة ومن الواجب ان يتحرر عقل الامة وضميرها ليتعزز شأنها وشأن حكومتها . واعلموا ان ثورة روحية في بلاد الافرنج هي اصل هذه الحرية السياسية التي نتمتع بها اليوم فرحين مبتهجين . يقال ان للجند يداً في هذه النهضة الاصلاحية ولا ريب عندي في ذلك . ولكن الجند في الحكومات الاستبدادية اذا امتهنت حقوقه وحبس زمناً معاشه يقيم السيف في امره حجة قاطعة . وكثيراً ما حدث من مثل هذا الحادث في الحكومات الاستبدادية في سالف الزمان . واما الان فنرى ان الجند العثماني ينصر النهضة الفكرية الاصلاحية ويثق تمام الثقة بمواعيد زعمائها . والفضل في تغلب الفكر على القوة والعقل على السيف حتى في الجند عائد الى شيء جميل في مدنيتنا ينتشر في العالم انتشاراً سريعاً . وهذا الشيء الجميل يتجسد احياناً في دعاة الاصلاح الصادقين وغالباً في الفلاسفة والشعراء الحقيقيين . فالشورى

على وجهها البسيط قديمة في العالم .وطريقها من المشرق الى المغرب يكاد يختفي في ظلمة التاريخ . واما من المغرب الى المشرق فمسلكها واضح وآثارها جلية . فمن المصلحين العثمانيين الى المصلحين الروسيين مرحلة قصيرة.وتكاد اسباب مجلس المبعوثين تتصل باسباب مجلس الدوما.وفي الدوما تتجلى لنا ارواح باكونين وتورغانيف وتولتسوي وغوركي . وهؤلاء منبثقون من فولتير وروسو وديدارو وهوغو . وروسو وفولتير وهوغو مديونون لكالفين وجون نكس ولوثيروس بكثير من الحرية التي تنبعث اشعتها من اقوالهم . فالثورة الروسية اذاً هي ابنة الثورة الافرنسية و كلكم على ما اظن تعلمون ذلك. والثورة الافرنسية . وهذا ما لا اظنكم تعلمون . هي احدى نتائج الثورة الروحية التي اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء . وعقلهمن قيود السلطة الصماء . وقلبه من قيود الطاعة العمياء . فتدبروا هذا واعلموا ان الحرية الروحية هي رسول الحرية السياسية . واذا جاءت هذه قبل تلك يعد مجيئها نقصاً لا بد ان تحاسبنا عليه الايام . (١)

* * *

ورب قائل يقول وما معنى الحرية الروحية .فقبل ان اجيب على هذا السؤال اوجه اليكم سؤالاً آخر . أتظنون ان كل من

(١) وما كنت اظن انها تسرع باخماد هذا الاسراع .

عاش في ظل الدستور صار حراً . أتظنون ان كل من تمتع بحقوقه المدنية اصبح حراً . اتحسبون الفقراء والعمال في الجمهوريات من الاحرار . اتقوم الحرية بهذا الوهم الذي يدعونه في الحكومات الدستورية حق الاقتراع . اتعجبون اذا قلت لكم ان نصف سكان الولايات المتحدة لا يزالون مكبلين بسلاسل العبودية . فما الفائدة للخادم من الحرية التي تتوقف على ارادة سيده الخبيثة الجائرة . ما الفائدة من الحرية السياسية التي يكفلها له القانون اذا كان القانون في قبضة الاغنياء . افمثل هذا يعد حراً وهو لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً رأي سيده . ايعد حراً من لا يملك نفسه . من لا رأي ولا روح له . ايحسب حراً من كان وجدانه مقيداً بوجدان من يتوقف عليه معاشه . فالتسكسك في الولايات المتحدة . اي بذل ماء الوجه امام ارباب المال هو مشتق من التسكسك في الشرق . اي تعفير الوجه امام ارباب السلطة والسيادة . والمتسكسك يا سادتي وان ملأ ماضغيه فخراً بالحرية والاستقلال والمساواة فما هو الا عبد تُكَلَة . لا رأي ولا نفس له .

الحرية الروحية اذاً هي ان يكون الفرد مالكاً نفسه اي مطلقا من القيود التي تضغط على روحه وعقله ان كانت هذه القيود عائلية او اجتماعية او دينية او سياسية . الحرية الروحية هي ان تكون روح كل امرىء بيده وتصرفه لا محجوزة ولا

موقوفة ولا مبيعة ولا مرهونة . وطالب هذه الحرية يتدرج فيها من بيته الى دائرة اشغاله ومنهما الى معبده وحكومته . فينعتق اولا من الواجب الكاذب الذي يفسد الحب في الاسرة ومن المصادقة التي تدعى لطفاً وصداقة ومن الخرافات التي تشوه وجه الدين . ومن التقاليد التي تفسد الحكومة . ان الحرية السياسية اذاً هي فرع من الحرية الجوهرية الاصلية الروحية او هي نتيجة من نتائجها . وهذه الحرية يحدها ويقيدها الناموس من جهة والتهذيب من الجهة الاخرى . فبدون الناموس يستبد الحاكم ويوغل في الطغيان . وبدون التهذيب يستبد الشعب ويمعن في العصيان . بدون الناموس يسود الظلم في الحكومة . وبدون التهذيب تسود الفوضى في الامة . فالناموس القويم الحي والتهذيب القويم الحي انما هما حصنا الحرية المنيعان . واما الناموس فتمثله الحكومة في الدستور ويمثله الدين في الايمان وتمثله الانسانية في الضمير . فالضمير الحي والايمان الحي والدستور الحي انما هي الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحرية الحقيقية المعنوية الجوهرية . الحرية الثالوثية التي هي واحدة اي الحرية الروحية والحرية الادبية والحرية المدنية . وان كان المرء حراً سياسياً ومقيداً دينياً وادبياً فحريته ناقصة . والحرية الجوهرية الروحية الكاملة لا تسود ولا تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهذيب الصحيح فعلينا اذن ان ننادي باصلاح المدارس بعد ان فتح لنا الباب

في اصلاح الحكومة . فان اصلحنا الحكومة وظل التعليم تحت سيطرة من يقتلون في الناشئة العثمانية عزة النفس. وروح الاستقلال وعاطفة حب الوطن . ويعطونهم بدلاً من ذلك قليلاً من العلم الذي قلما يفيد نعود الى الحال التي كنا فيها وتمسي حريتنا كجواد الامبراطور الروماني كاليغولا [1] ودستورنا كطيلسان ابن حرب او كجبة ديوجن [2] علينا اذاً ان نبث الروح الجديدة في مدارسنا علينا ان نشيد لحريتنا حصناً من التهذيب كما شيدت لها الحكومة حصناً من الدستور . علينا بالجهاد والثبات . بالتيقظ والتحذر تحذروا ايها العثمانيون وتنبهوا .

تحذروا من انقلاب الاحوال وتقلب الرجال فان للوزارة في الدولة مقاصد تخفى على ممثلي الامة وعمال الحكومة

تحذروا من رجعات الظلم . تنبهوا الى عودات الاستبداد . ان في السياسة من الاحابيل والاشراك ما لا يعرفها الا من اشرف في السياسة مراراً على الهلاك . احذروا من كان في عهد الظلم حراً فاصبح اليوم مقيداً . اذ بدل الجاسوسية القديمة قد يتألف اليوم من حزب التقهقر جاسوسية جديدة .

احذروا حيل المشعوذين المخرقين كحذركم دسائس المعزولين والساقطين . ولا تغضوا الطرف عنهم قائلين ان لسمهم درياقاً

(١) حصان قيل ان الامبرطور منحه لقباً وكان يعبده

(٢) طيلسان بن حرب . مثل جبة ديوجين . كان كثير الفتوق والرقع

بالدستور . لا تأمنوا السم باصفهان . اذا كان درياقه بخراسان .

احذروا الخونة والمرائين الذين ينادون معكم اليوم « فلتحي الحرية » وهم في قلوبهم يلعنونها .

احذروا من المأمورين من يبتهج ويفرح معكم بالدستور وكان الظلم من طبعه والاستبداد وراثة فيه . فان العوسج لا ينبت تيناً . والصخر لا يستحيل ماء معيناً .

احذروا من اتخذ السياسة حرفة والسيادة باباً للارتزاق لان المعدة والاهواء والمطامع تنسيهم الشعب والدستور والحرية .

احذروا المصلحين الكاذبين الذين يتزلفون من الشعب اليوم كما كانوا امس يتزلفون من السلطان ووزرائه لان طالب الوظيفة واحد ان احرق بخوره امام الباشاوات او امام الجماعات .

تحذروا من جهل الشعب العاتي كما كنتم تتحذرون البارح من ظلم الحكومة العاتية. فالتاريخ شاهد على ما ارتكبه الشعب باسم الحرية من المظالم والفظائع . احذروا في انتخاب المبعوثين نفوذ رجال الدين. فالعضو الذي ينتخبونه يؤثر في المابين مصلحتهم على مصلحة الامة .

احذروا ايضاً نفوذ الاغنياء الذين لا يهمهم من الحرية والدستور سوى ارتفاع الاسعار في (البورص) وهبوطها . اذا شبع الزنجي بال على التمر .

احذروا من ينتمي اليكم اليوم ممن يأكلون اموال الناس

بالباطل ويصدون عن الحق . اولئك الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون منها في سبيل الامة والوطن والخير العام .

وبكلمة اعم احذروا الحرية التي لا ينيرها التهذيب والتهذيب الذي لا تنيره الحرية .



الثورة الادبية[1]

سادتي وسيداتي

قبل ان ابدأ بالكلام اطمئنكم أوكد لكم انني لا اكلمكم هذه الليلة بالرموز والالغاز . بل في نيتي ان اجرد الاشياء من زيناتها واسميها باسمائها . فان ذكرت العقاب مثلاً فلا تظنوني اشير الى شيء خفي تحته او فوقه او وراءه او فيه . بل اريد العقاب بعينه. وان قلت هبّت الشرقية.فلا تقولوا ما اجمل هذه الصور الخيالية . فاني اقصد النار الحقيقية تلك التي لو مرّ العقاب فوقها لوقع فيها مشوياً . قد حان لنا ان ندعو المعول معولاً . على حد قول اخواننا الاميركيين . وبناء على ذلك سنبقى على الارض هذه الليلة . بعيدين عن القمر والجوزاء وعن تبرقش الشعراء .

لما وقفت امامكم في السنة الماضية شعرت بوجودي معكم في غور الحياة بل في اردن الموت . واما الآن فاراني والحمد لله اخاطبكم وانتم في سهول الصحة تستنشقون هواء الحرية.فمن اردن الموت الى سهول الحياة وحقول الحرية — انها لخطوة خطيرة . ولكنها صغيرة . هي خطوة الى الامام ولكنها لا تغني عن

(١) القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في المدرسة الكلية في بيروت .

رحلتنا الطويلة شيئاً من الاقـدام . فاننا . اذا حوّلنا وجهنا الى مشرق الشمس . نرى الجبال قائمـة في طريقنا . لا لتعترضنا في سيرنا . بل لتشحذ منّا الهمة وتوقظ فينا النشاط .

وكلما صعدنا في جبل نشاهد فوقنا روحاً تجسد من الامال وهي تدعونا الى ما فوقها من الجبال . وان الامة التي تستيقظ من سباتها وتنفض عنها غبار فتور الاجيال ينبغي لها ان تواصل السير بالسرى والا تقهقرت فسقطت ثانية في الوهدة التي قامت منها . ولا يخفى عليكم ان الطريق وعرة . والزاد قليل . والنفس مضناة من اقامتها طويلاً في الغور . والاحمـال ثقيلة . والادلاء كثيرون . ولكننا سنتوفق ان شاء الله في مسيرنا على رغم هذه الصعوبات والعقبات اذا اتخذنا شمس العلم دليلنا . والآداب والفنون زادنا .

ان الشمس المشرقة علينا من المغرب اليوم هي والحق يقال شمسنا . هي شمس آدابنا . هي شمس اديانـنا . هي شمس مجدنا الغابر . وانكم اذا نظرتم الى خارطة العالم . ترون ان من البلاد ثلاثاً آخذة منه مركز القلب. وهذه البلاد هي سوريا وفلسطين . وجزيرة العرب . وما بين النهرين . هذه البلاد وطننا . هـذه البلاد قلب العالم . وفي هذا القلب ظهرت الانبيـاء وفيه نشأت الاديان. ومن هذا القلب اشرقت على اوروبا في الاجيال الوسطى شمس العلم والفلسفـة والادب . فانارت ظلمات الاوروبيين

وخرجت بهم من مهامه الجهل والتوحش الى واحات الرقي والعمران . اجل ان وطننا لقلب العالم ولكن اوروبا رأسه . وان كان القلب منشأ الخيال والنبوة فالرأس منشأ العلوم والفنون على ان النور المنبثق من الرأس فقط هو كالنور الاصطناعي الذي يضيئون به المراسح في اوروبا . هو نور بارد جامد خاسئ واذا لم يشترك مع نور القلب وحرارته فلا خير فيه للانسان مهما عظمت نتائجه في دوائر العمران . اما الفنون فان لم يكن الضمير أسها والاخلاص لبها ونفع البشر غايتها الاولى فهي أفيون لا فنون . فهي تخدر الحواس وتذهب بشيء من الهموم ولكنها تقتل النفس وتفسد الحياة .

ان سكان هذه البلاد التي هي قلب العالم لشبيهون بشجرة ذكرها النبي . شجرة مباركة لا غربية ولا شرقية . نحن اليوم واقفون بين مدنيتين متناقضتين متعاديتين . مدنية جديدة ومدنية قديمة . مدنية اوروبية ترفع اعلامها في البلاد كلها . ومدنية شرقية لم يزل لها المقام الرفيع بين فئة راقية من نخبة الادباء والفلاسفة في اوروبا . اذا كان هؤلاء الاوروبيون يجدون اذاً في مدنيتنا ما لا يجب تركه . ما لا يجوز اضمحلاله فكم بالحري نحن . ولي كلام طويل في هاتين المدنيتين اقول الوجيز منه الآن . لست بجاهل ما في مدنية اليوم لمن كثر ماله فقط من دواعي الراحة في المعيشة البيتية المادية والسهولة في الاسفار والمواصلات .

ولا اظنكم تجهلون ما في التعادي والتكالب في سبيل هذه الاشياء من الشقاء ايضاً والبلاء . فان المدنية التي يدعى التكالب فيها نشاطاً . والخداع براعة . والقوة حقاً . هي عندي شر المدنيات . وهذه مدنية اوروبا اليوم . . مدنية كهرباء هي وبخار . مدنية تجارة وكسب واستغرار . مدنية حروب وفتوحات واستعمار . ليس فيها للضمير والذمة اثر من الاثار . مدنية جذورها حب الذات والاستئثار . وثمارها اليأس والانتحار . لا تقولوا بالغت فان كلامي من الاختبار . لا من المجلات والاسفار . واما مدنية الشرق فلست بمنكر انها مدنية فتور وجمود واستسلام . مدنية اصولها القضاء والقدر ولبها محض اوهام . ولكن فيها من جميل العادات والتقاليد . من جميل العواطف والشعور . من عزّة النفس وكرم الاخلاق . من الاعتدال في العيش والبساطة . ما تفتقر اليه مدنية اوروبا . وهذه الخلال الشريفة تبعث الحرارة في الحقيقة الباردة القاسية فتمسي الحياة خفيفة الاحمال مرضية الآمال .

فضلاً عن انه لم يزل في هذه المدنية القديمة شيء من الضمير الحي والتجرد في الولاء مما يزيد انفس الشرقية جمالاً . والضمير الحي ايها السادة هو ملح العلوم والفنون والاداب وبهذه كلها تتغذى المدنية الحقة .

نحن اليوم واقفون بين هاتين المدنيتين — بين مدنية غازية

منتصرة واخرى مدبرة . فعلينا اذاً ان لا نخضع على الاطـلاق لهذا الفاتح القوي. وان نتمسك بما في مدنيتنا من الخير الروحي. ولا ينجينا من استبداد هذه المدنية الفاتحـة القاهرة ويحفظ لنا حسنات تلك المدبرة سوى الاداب . لا اريد بالاداب الكتب فقط بل اريد منها اداب النفس اولاً والاخلاق . ان الدين وهو اب مدنية الشرق يرفض بتاتاً مدنية الغرب . وان العلم المادي وهو اله مدنية الغرب يرفض بتاتاً مدنية الشرق . فالدين والعلم في هذا الموقف متغرضان كل لقومه ولا ينفعنا الواحـد منهما دون الاخر . واني لا اجد في كل قوى الفكر والنفس وثمارهما اصلح وانجع من الاداب تجمع بين الاثنين فينشأ عن ذلك مدنية جديدة قوامها الصنائع والفنون وشعارها الاخاء العام . واعلموا ان الفنون السامية الجميلة هي الـتي تتغذى بالعلم والدين معاً . والامة التي تجعل مثل هذه الفنون اساس حياتهـا الاجتماعية تكون ولا غرو مجد المستقبل وأم الامم . على شطوط البحرين وفي اودية الرافدين احب ان اشاهد مثل هذه المدنية الجامعة بين محاسن المدنيتين . احب ان ارى في قلب العالم جمال روح العالم وكمالها . احب ان ارى في بلاد الشام وبلاد العرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة . احب ان تُزرع بساتين هـذه الارض المقدسة من تلك الشجرة المباركة . شجرة لا غربية ولا شرقية . واحب ان ارى الادباء والشعراء بعيدين عن السياسة

واوحالها منصرفين الى حراثة هذه البساتين الجميلة .

ايها السادة — لا تظنوا ان الانقلاب السياسي يجدي نفعاً ان لم يتبعه انقلاب ادبي . لا تظنوا ان في الحكومة الدستورية دواء شافياً لكل امراضنا . لا تظنوا ان الدستور وحده يخلص الامة من الاخطار المحدقة بها النامية في قلبها . وان الصحافة الحرة تقف دائماً من اجل الامة في وجه المشعوذين والمضللين والمفسدين . وهل الدستور والصحافة الحرة رقيتان من رقيات السحرة حتى اذا قلنا مثلاً شولم صحافة ا صرنا شعباً حراً ? شولم دستور ا صرنا امة راقية ? لا ياخواني لا . اذا طلبتم الحرية فاطلبوا المعنوي منها قبل الحرفي . الجوهري قبل السياسي .

اطلبوا الحرية الروحية التي تحصنها الاداب قبل الحرية المدنية التي تتاجر بها الاحزاب . وان خفي عليكم الفرق بين الاثنتين فاذكروا ان حرية الجسد لا تجدي المرء نفعاً اذا كانت النفس مقيدة . وان حرية الفكر والقول لا تغني فتيلا اذا ظلت الروح اسيرة ما اعتاده الجسد من الراحة والترف والرخاء . او من الذلة وتعفير الوجه والعياء .

اخواني — ان الفرق بين الحرية الادبية الروحية والحرية المدنية المادية لهو كالفرق بين حرية السياسي في مراوغاته وحرية البدوي في خيمته او الرجل الصالح الجريء في معاملاته . اجل ان الحرية الحقيقية هي التي تنشأ في النفس لا التي يمنحها الملك

الرعية . فان هذه ترعزعها الاهواء . ويتاجر بها الزعماء . وتقتلها رجعات التقهقر الشعواء . وتلك كنز من كنوز النفس الخالدة . والذين لا يناضلون عن مثل هذه الحرية ولا يفادون من اجلها بشيء مما الفوه من رخاء العيش او بشيء مما نالوه من المال او الرفعة والوجاهة فما ضرهم لو دعوا كلابهم احرارًا وذكروا في صلواتهم عبد الحميد ؟ ان الذين يتنازلون عن حريتهم ويتاجرون بها كما لو كانت ثوباً من الخام او سهماً من اسهم البورص ان هم الا قبور متحركة . اذ ما الجسد الا كالقبر لنفس باعت حريتها . ولكنني خرجت عن الموضوع .

قلت ان الاداب التي تجمع بين العلم والدين تكون قوام المدنية الجديدة التي يقرن فيها بين مدنية المغرب المادية ومدنية المشرق الروحية . ولكن آدابنا لم تزل تحت سيطرة المتدينين والمتنطعين وانفسنا لم تزل في ربقة رجال الدين . واذا كنا لا نتجرد من هذا الاستبداد الديني او بالحري السفسطي . كما تجردنا من الاستبداد السياسي . تظل ادابنا مبتذلة جامدة خاسئة ونعود بعد حين الى ما كنا فيه من الفتور والخمول والانحطاط .

خذوني بحلمكم فاقص عليكم بوجيز الكلام قصة الكهان . ونشوء العبادة في قلب الانسان . لنعد الى الاكواخ اذًا فحكي هناك شيئًا من حكاية اجدادنا الاولين . ان من المعقولات التي لا تنفيها الالهيات او الالهيات التي لا تنفيها المعقولات . حيوانية

الانسان . فان اول دعوة لباها دعوة البطن والشهوات . وماذا يهمنا . وقد علمنا هذا . فيما اذا كان يمشي على الاربع في تلك الايام او على الاثنين . ان في العالم حتى اليوم كثيراً من الحيوانات التي لا تمشي على الاربع . هذا الحيوان الناطق اذاً لم يكن يفهم في بادىء امره الا حديث معدته وحديث كبده . فكان لا يحسن غير الصيد والحرب والاكل والسفاح وبعد فترة من الزمن مقدارها الفان قرناً او الفان عاماً — لا فرق عندي — بدأ يسمع صوتاً آخر من فوق المعدة والكبد . بدأ يشعر بدعوة القلب فصار يعطف قليلا على اولاده ان لم نقل ايضاً على شريكته بل جاريته بل بعلته . وعلى هذه الحال عاش سنين — وللعلماء ان يجمعوا الالوف منها فوق الالوف فان عدها لا يستحق تعب الفكر — عاش سنين وهو لا يرى ولا يسمع سوى ما زينته له الغريزة وحدثته عنه المعدة . او لا ترون ان بعض الشعوب اليوم فضلاً عن القبائل المتوحشة . لم تزل في هاته الحالة المنحطة من الحياة . فان القوى المدركة لم تظهر فيهم بعد . وفي هذه الفترة الطويلة الامد نشأت على ما اظن العبادات والمعبودات التي كانت في بادىء امرها مادية محضة . لان هذا الحيوان الناطق بل هذا الصياد الغازي لم يرَ في الاشياء الا ما ظهر منها . لم يرَ في الشمس الا النور . لم يرَ في الشجرة الا ثمارها واغصانها وقشورها . لم يرَ في النار سوى لهيبها ودخانها ورمادها . لم يرَ في الحيوانات سوى

ما بدا منها وما ظهر من حركاتها . في تلك الايام السعيدة كان كل حيوان ناطق يعبد طاغوته ويحب مرمورته على طريقته الخاصة بمقتضى شعوره وهواه عملا بداعي القلب والغريزة . وبعد ان مضت عليه احقاب وهو في هذا الغور من الحب والعبادة ارتقى قليلاً الى ما فوق السهول وبدأ يشغل المخيلة منه حتى صار يرى في الاشياء شيئاً تحت القشور وتحت الرماد . وبما انه لم يدرك اسرارها راح يسلي نفسه بالاشعار ويعللها بالخيالات . وبمقتضى هذا طفق كل انسان يمثل الخالق في الشكل الذي انطبع في قلبه اكثر من سواه . ولا حاجة لتعداد هذه المعبودات كلها . فلو جئت اعدد منها . لا ان اعددها . لاقتضى ذلك من الوقت ما لا يسمح به المقام . ولكن اذا ذكرنا منه الجعل والشمس فقط نكون قد جمعنا اولها بآخرها . اوطاها باعلاها . اصغرها باكبرها . وحالة الفرد تجاه معبوده في تلك الايام هي هي اليوم في شعوب الارض كلها ولم يرتق في الامم سوى الافراد .

وكذلك في اجدادنا اصحاب الاكواخ . لما ظهر في الجماعات اناس ارقى نوعاً من اخوانهم وبدا لهم ان الانسان يرتاح الى كل غريب عجيب — والزنجي والباريزي اليوم سواء من هذا القبيل — لما علم هؤلاء الدهاة ما للخيال والوهم من السطوة على الانفس والقلوب . قاموا يؤسسون من هذه العبادات ديانات رسمية . فبنوا المعابد . وحاكوا من اوهام الناس طقوساً وطرائق .

واقاموا انفسهم روءساء في الهيكل وبدأوا يتكهنون ويمثلون الله – استغفر الله – يمثلون الطاغوت على الارض • وهذا في رأيي اول ما كان من امر الوثنية والكهان • واذكروا ان الوثنية لا تزال سائدة في بلادنا والكهان يتعاطون التجارة اليوم في دكانهم القديم • وقد اوضحت كيف كان كل امريء يعبد طاغوته على هوى قلبه قبل ان يولد الكاهن • ولكن هذا المرمريت – اللفظة وحشية ولكنها في محلها – اول من ألّف من هذه العبادات ديانة رسمية فشيدت من اجلها الهياكل • ونحتت الاصنام • وقدمت الذبائح والقرابين • وتسربت الى بيت صاحبنا المتكهن العطايا والاموال • وذلك قبل ان يظهر في الارض الانبياء الذين هم اعداء الملوك والكهان • فاذكروا هذا ولا تنسوه • ان الانبياء لاعداء الظلم في الملك • واعداء الرجاسة في الهيكل • واعداء الفساد في الجماعات •

واما الكهان ياسادتي فهم اول من عاثوا في الارض فساداً هم اول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها • هم اول من تاجروا بالخداع والتغرير • هم اول من استولوا على الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بانباء من السماء كاذبة • والكهان اليوم او روءساء الاديان كلها هم اعداء الحرية الروحية الادبية • ولا يغرنكم ما بدا منهم من الارتياح الى هذه الحرية التي منحنا اياها الدستور • فان العنان لا يزال في ايديهم والارواح لا تزال في ربقتهم • الكهان

هم اعداء الآداب الراقية • اعداء نزعات النفوس السامية الى الكمالات الفكرية • على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة وصب أشعيا نار غضبه في اورشليم • على الكهان ومذابحهم وتراويقهم واصنامهم ورجاساتهم انقضت صواعق حزقيال في اسرائيل وزمزمت رعود دانيال في بابل • على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد • ولوثيروس في وتنبورغ وجون نكس في انكلترا وغيرهم في البلاد كثيرون • فما علينا لو استغنينا عن المتكهنين المدلسين وتفلتنا من ربقتهم واعتصمنا بالله وبدين الله وبانبياء الله • تدبروا كلامي ولا تسيئوا افتهامي • اني احترم العاطفة الدينية التي تكاد تكون فطرية في الانسان ولكني لا اجد في خزعبلات هؤلاء الناس وفي تنطعهم — وقد قيل هلك المتنطعون — ما يساوي ذرة من نفس امرئ راقية • ولكن اذا لبس الكاهن او الامام لغايته ثوباً من التغرير والخداع ولبس المتعبدون ثوباً من الجهل والخرافة فذلك لان الانسان لا يسير في الارض عرياناً بل ينبغي له ان يستر سوءته ولو بسوءة اسوأ منها

وقد قال احد المسلمين : ان من آفات الدين فسق المتكلمين وجهل المتعبدين • ايها السادة المرء يحتاج دائماً الى من يذكره بانه من ابناء اليوم لا من بقايا الامس • يحتاج دائماً الى من يريه الربقة والقيود على روحه • يحتاج دائماً الى من يهمس في اذنه او

يصرخ في وجهه : انك انسان حر · لا آلة في يد هذا او ذاك يتصرف بها ساعة يشاء كيف شاء · فيا ايها الشرقيون · ان تحت خريف نفسكم الدائم ربيعاً جميلاً اذا كنتم تعقلون · ان تحت رهوكم موجات عظيمات لو ناهضتم العاصفة ولو مرة في الحياة · فان مثل هذه النهضات الروحية · مثل هذه الثورات الادبية · وان كانت عاقبتها اليوم غير مرضية · فهي غداً للنفس منعشة محيية · مثل هذه النهضات تعود المرء الفكرة · وتروض منه الارادة · وتكسبه المنعة والاستقلال · ان للماضي اثراً قوياً في العروق · ان فتور الشرقي وخموله لفي الدم · اذا كان لا يمرن نفسه وارادته اذاً على ما يحرك الدم — دم الجسد ودم الروح معاً — يظل ما دام حياً كطلل من اطلال الزمان · ولا ينهض بالشرقيين من هذا الغور المظلم سوى الثورة الادبية التي يتبعها انقلاب عظيم في الاخلاق ·

فها اننا قد صرنا امة حرة ذات حكومة دستورية · ولكن ذلك لا ينافي ما في العائلة وما في الطائفة وما في المدرسة من الجور والحيف والاستبداد · من العداوة والجهل والفساد · ذلك لا ينافي ما في اصطلاحاتنا الاجتماعية — واكثرها من فضول هذا التمدن الافرنجي من الضيم والشقاء ما لا يماثله ظلم في الحكومات المطلقة . الا ترون ان التاجر لا يزال محني الظهر تحت امواله وصكوكه وان الصانع لا يزال اسير هذا العبد سيده . والتلميذ في المدرسة

اسير جهل استاذه . والاستاذ اسير استبداد رئيسه . الا ترون ان المصلح السياسي مرهونة حريته لخطة حزبه . والكاتب حريته عند قرائه او في قبضة رزقه ، والصحافي حريته في جلده واستقلاله في كيسه ، - لا تواخذوني فقد وعدتكم في البداية بان اسمي المعول معولا والعقاب عقاباً ـ الا ترون ان المرأة في البيت مقيدة بارادة زوجها . عادلة كانت او جائرة . وان الاب لا يزال يعتقد ان اصول التربية في تأييد سلطته . وان المأمور في الحكومة يتألم من ضغط ذاك الجالس فوق رأسه . والجندي من استئثار ضباطه والكاهن من ظلم اسقفه . والاسقف من استبداد بطريقه . والراهب يحترق في نذره ويئن من عنف رئيسه ، والفلاح يتأوه من جور اميره . بل بصرخ في بعض الاماكن تحت سوطه — شولم صحافة ؟ صرنا شعباً حرًا . شولم دستور ؟ صرنا امة راقية .

اي اخواني . اسمعوا التقية تهمس في اذن هذا الشيخ — حافظ على مركزك . اسمعوا الخوف يقول لذاك الصحافي — حافظ على مصلحتك . اسمعوا الذلة ترشد اخانا الفلاح قائلة — اتق بطش سيدك . اسمعوا الجبانة تهمس في قلب الراهب — اتق الفضيحة وحافظ على ثوبك . فالتقية والخوف والذلة والجبانة هي اعداء حرية الانسان الحقيقية . وان لم يحرر نفسه منها بنفسه فمائة قانون ومائة دستور لا تحرره . واعلموا ان الارادة المستولية على ارواحنا لا يخلصنا من ظلمها الا ارادة اشد منها .

اني ادعوكم اذاً الى ثورة ادبية · اناشدكم بالحرية التي بعثت من غور ماضينا حياة جديدة ان تطردوا الخوف والتقية والذلة والجبن من قلوبكم وبالاخص عند ما تشعرون بيد الظلم عليكم وترون الحرية الادبية مقيدة امامكم · ايه اخواني · ارفعوا اعلام الاداب في البلاد · شيدوا صروح التهذيب · اسسوا معاهد للفنون · فان الاداب والتهذيب والفنون هي القوى الادبية الروحية التي يتآلف فيها العلم والدين · ويقرن فيها بين بديهيات الانبياء ومعقولات العلماء · وتمتزج فيها روح الحقيقة وروح الجمال · وتنبثق منها اشعة السلم والحب والاخاء · اجل · هي القوى التي يتوقف عليها تحرير الانسان · وتحرير الشعوب والامم لنعزز الاداب اذاً والفنون · لنؤيد بالقول والعمل التعاليم السامية · لننصر الاراء الحرة السديدة · ومتى رأينا ان الحزب الذي ننتمي اليه · او الطائفة التي نحن منها · والجريدة التي نكتب فيها · تحاول تقييد افكارنا او الضغط على عقولنا او المتاجرة بارواحنا · فعلينا ان نخرج منها سريعاً وننفض عن نعلنا غبارها . ان شرف المرء في حرية عقله ونفسه · وشرف الاحزاب في حرية رجالها · وشرف الطوائف في حرية ابنائها ·

اخواني — ما الناس الا امة واحدة . وستجمعهم في المستقبل ان شاء الله جامعة واحدة هي جامعة الاداب والفنون . ودين واحد شامل قوامه الابوية الالهية والاخاء العام ·

المدينة العظمى (١)

سادتي وسيداتي

قص ارستو الشاعر اليوناني قصة عرافة تتراءى للناس اثناء الربيع والصيف في صورة ملك سماوي واثناء الخريف والشتاء في شكل حية رائعة هائلة • وكانت هذه الساحرة تغمر بفضلها والائها اولئك الذين احسنوا اليها وعاملوها بالمعروف في فصلي الشتاء والخريف • واما الذين اساءوا معاملتهاوحاولوا قتلها وهي في تلك الصورة المخيفة فكانت تحرمهم هذه النعم والبركات • وقد شبهت الحرية بهذه العرافة العجباء التي تبدو تارة كالملك وطوراً كالحية الرقطاء .فالحرية في بادئ امرها تتخذ هذا الشكل المزدوج الغريب الذي يتخوف منه بعض الناس ويغالي في مدحه الاخرون • ان في الامم التي الفت العبودية تظهر الحرية اولاً كالحية فتتحول رويداً رويداً الى ملك سماوي • وما من منكر ان حرية العثمانيين لم تزل في فصل الشتاء • حريتنا لم تزل كعرافة ارستو في شكلها الهائل المخيف • ويجب مع ذلك ان نصبر عليها ونحسن استقبالها حتى اذا استحالت ملكاً قريباً لا نحرم فضلها

---

(١) القيت في الحفلة التي اقامتها جمعية طلبة العلم العثمانيين في ١ ايار سنة ١٩٠٩ في المسرح الجديد ببيروت

والاءها .

سادتي . ان الحرية مهما قيل فيها هي ضالة الانسان المنشودة. هي غايته القصوى في الحياة . هي قوام الانفس والعقول.وغذاء الفنون والعلوم . واسّ كل مظاهر الرقي والعمران . واود لو دعيت المدينة العظمى التي هي موضوعي الليله مدينة الحريـة واطلقت على شوارعها اسماء رسل الحريـة وابطالها في كل زمان ومكان .

من الحقائق التي لا ريب فيها ان الانسان مهما ارتقى في سلم الحياة يظل في مكان يرى منه من تقدمه الى العلاء . ومهما انحط المرء وتقهقر لا يصل الى القعر الذي لا يكشف على احد دونه .

فالسلم والهاوية لا نهاية لهما في الحياة . لان الدرجة الاولى منهما في المهد والدرجة الاخيرة في القبر . اينما كان المرء اذاً يرى كثيرين من الناس فوقـه وكثيرين تحته . وكلما ارتقى درجة في معارج الفوز والفلاح يسمع اصواتاً بعيـدة تدعوه الى ما هو فوقها . وهذه من حقائق الحياة التي فيها لجميع الناس كثير من التنشيط والتعزية علينا اذاً ان لا نكون عبيداً لمن هم فوقنا والا نستعبد من هم دوننا . علينا الا نتصاغر امام الكبار والا نتكابر امام الصغار .

وكما في الناس فكذلك في المدن . فلا يحق للوندرا مثلاً ان تصعر خدها للقاهرة ولا للقاهرة ان تشمخ انفهـا على بيروت

لان حسنات المدينة العظمى قد تكثر في هذه وتقل في تلك .قد تكبر في المدينة الصغيرة وتصغر في الكبيرة . والمدينة هذه التي صورّها العقل بريشة الخيال ما هي من مدن هذا الزمان ولا من مدن الماضي . ليس في نيتي ان اكلمكم لا عن نينوي او بابل ولا عن نيويرك او باريس فان باريس من أمّات المدن العظيمات ولكنها لا تستحق في نظري صيغة التفضيل لان هناك مدينة اعظم منها مجداً . واسمى منها شأناً . وابعد منها جمالاً . وارقى منها فضلاً وعلماً .

ومن يتجاسر ان يتكهن في هذه الايام . من يدري ما في المستقبل لشعوب آسيا الصغرى . فقد تزهو المدينة العظمى فوق اطلال بابل . قد يشيدها الزمان على ضريح نينوي . قد ترتفع صروحها واعلامها وابراجها وقبابها تحت هذه السماء الجميلة . على هذه الشطوط التاريخية المقدسة. امام هذه الامواج التي شاهدت جنازة مجد آسيا . وستشاهد ان شاء الله موكب بعثه .

وباي تمتاز المدينة العظمى عن سائر المدن ؟

ابمراسيها البحرية . ابمحطات السكك الحديدية . ابمركباتها الكهربائية . اباسلاكها البرقية . اباقنيائها اللاسلكية . ابقصورها الشاهقة . ابصروحها الفخيمة . ابانفاقها وجسورها وملاهيها ؟ باي تفاخر المدينة العظمى سائر المدن ؟ ابشوارعها الواسعة النظيفة . ابساحاتها الكبيرة الجميلة . ابمخازنها الحاوية ما ندر وعز من

مصنوعات الطبيعة والانسان . ابمدارسها العمومية . ابمستشفياتها المجانية . ابمعاهدها العلمية . ابمتاحفها الادبية والتاريخية . ابمصارفاتهاوبورصاتهاواغنيائها . ابكثرة سكانها . ابتعددمعابدها ؟ لا ياسادتي .

المدينة العظمى تمتاز عن سائر المدن بنوابغها . بشعرائها وعلمائها وارباب الفنون والصنائع فيها . المدينة العظمى هي التي يمكنها ان تفاخر سائر المدن لا بكثرةسكانهابل بكثرةالاصحاء فيها . اذ ما هو الخير فيمدينة تسعون في المئة من ابنائها مرضى ؟ المدينة العظمى اذاً هي التي يخلو هواءها من جراثيم الامراض المعدية وتشرق شمسهاعلى عقول سليمة في اجسام سليمة . المدينة العظمى هي التي تكرم ابطالها ونوابغها لا باقامة التماثيل ونصب الانصاب فقط بل بالاقتداء بهم وبالعمل بتعاليمهم . هي المدينة التي يقرن فيها بين البساطة والجمال في ابنيتها وفي ازيائها وفي فنونها . وبين الرحمة والعدل في احكام قضاتها . وبين العلم والدين في تعاليم علمائها . هي التي يحترم المرء فيها جسده وروحه ويعتني على السواء بنظافة الاثنين . هي التي ينبذ رجالها ونساءها الشرائع التي يسنها الخائنون لتعزيز شؤون افراد من الناس ولا فرق ان كان الافراد من الاغنياء والامراء او السلاطين . هي التي لا يوجد فيها ارقاء ولا تباح فيها النخاسة . هي التي ينهض فيها الشعب نهضة واحدة على ظلم الحكام وفساد المسيطرين . هي

التي يكون شعار كل امريء فيها

لا تسقني كاس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كاس الحنظل

المدينة العظمى هي التي لا يتداخل في شؤونها سلطة اجنبية . هي التي يكون كل امريء فيها سلطاناً بنفسه بل تمثالاً حياً للحرية والاخاء . هي التي يعتبر الحكام فيها كخدام يخدمون بالاجرة . هي التي يتعلم الاولاد الاستقلال وعزة النفس في مدارسها قبل سائر العلوم . هي التي تطلق فيها حرية القول والعمل ويكثر فيها التنقيب والبحث وتثمر فيها الفنون وتتعزز فيها الاداب . هي التي تكون الصداقة فيها امراً مقدساً والاخلاص محترماً كسر من الاسرار الالهية . هي التي لا تكره الامرأة فيها على الاقامة مع رجل لا تحبه ولا الرجل مع امرأة لا يحبها . هي التي يكون الابوان فيها صحيحي الجسم والعقل قويين نشيطين مدركين فيوجدان نسلاً قوياً مدركاً نشيطاً . ان لم تصلح صحة هذا الجيل فلا رجاء لنا في المستقبل . المدينة العظمى هي التي تكثر فيها الامهات الحزيات العزومات المدركات ما سما من مقاصد الحياة فلا يعلمن اولادهن الخرافة والكذب والمراوغة ولا يعودنهم الطاعة العمياء والجبانة والخوف . الشرق يحتاج الى الام التي تعلم اولادها الاعتماد على النفس فوق كل شيء . المدينة العظمى هي التي تسير النساء في اسواقها سافرات ويحضرن الاحتفالات العمومية كالرجال ويشاركن كالرجال في البحث والارشاد . هي

المدينة التي يستغني فيها اهل الادب والفنون عن اهل المال . بل هي التي يتأسس فيها دائرة اوقاف لا لخدمة المعابد واعاشة رجال الدين بل لخدمة العلوم والفنون . لخدمة النوابغ والعلماء . اي سادتي . عبثاً تسن الحكومـات الحرة شرائع حرة ان لم تطلق انفس العلماء وارباب الفنون من قيود المصلحة ومن هموم الارتزاق

قيل لبعض العرب ومن سيدكم ؟ فقالوا فلان . فقيل بمَ ؟ فقالوا احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا ان مثله تكون العلماء والامراء . وبمثله ان شاء الله ستفاخر المدينة العظمى سائر مدن العالم . (احب ان اتمثل بابناء هذه اللغة لتتأكدوا ان مثل هذه المدينة العظيمة لا يستحيل وجودها في بلادنا) . اليكم اذن بمثل اخر . قال سيد من العرب لقومه : اعلموا انني حاسدت عليكم حتى صرت عبداً لكم . اغدق على سائلكم . واصفح عن جاهلكم . واحوط حريمكم . وادفع غريمكم . فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي . ومن فعل فوق فعلي فهو فوقي . ومن فعل دون فعلي فهو دوني . فهل ياترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيه هذه الخـلال الشريفة كلها . افلا يحق لمدينة المستقبل ان تفاخر سائر المـدن بمثل هذا الامير .

وبين رجال العرب من كان اعظم منه . دخل ابن العباس على علي بن ابي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله فقال له : ما قيمة هذه النعل فقال ابن العباس : لا قيمة لها . فقال علي :

لهي احب اليَّ من امرتكم الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلاً . فالمدينة العظمى هي التي يكثر فيها مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين . هي التي يتعود كل امريء فيها محاسبة نفسه فاذا كان ممن لهم شيء من الشهرة او المجد او القوة او النفوذ او السلطة او المال يسأل نفسه كل يوم وما قيمة هذه الاشياء كلها الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلاً . ما الفائدة من هذه السيادة او من هذه الشهرة او من هذه الاموال اذا كانت لا تساعدني على نصرة الحقيقة واقامة الحق ودفع الاباطيل والاضاليل . ما الفائدة منها اذا كانت لا تبعدني في الاقل عن هذه الظلمات وسكانها وعن اسيادها وعبيدها . وقد قيل شر من الجهل نصرة الجهال واسوأ من الضلالة الاحتجاج للضلال .

اجل سادتي . ان المدينة العظمى هي التي تنتصر فيها الحقيقة قولاً وفعلاً . هي التي يروج فيها الصدق كما هو الكذب رائج في العالم اليوم . هي التي يعيش فيها الادباء والعلماء لا للشهرة والمجد ولا للكسب والمال فقط بل لخدمة الحقيقة فكراً وقولاً وفعلاً . ان فروسية اللسان لغير فروسية الجنان . وما كل من هز لسانه فخراً ومباهاة يستل حسامه في الغارات . فالنفس الراقية التي تعيش لهواها وشهواتها واباطيل المجد والسيادة فقط هي كالكلب الافرنجي الجميل الذي يقضي حياته كلها تحت قدمي سيده او تحت رداء سيدته . والعجب في امر هذه النفس انها

كلما امعنت في اللذات اكفهرت في وجهها افاق الحياة . وقد قال احد المتصوفين

ان المرائي لا تريك عيوب وجهك في صداها
وكذاك نفسك لا تريك عيوب نفسك في هواها

وها اني ذكرت من المحاسن والاماني ما ستنفرد فيه المدينة العظمى عن سائر المدن . وهناك امنية اخرى بل نبوءة لاحد الانبياء ترددت في ذكرها . وليلة كنت افكر في هذا الموضوع طرق بيتي طارق ففتحت فاذا بالباب شيخ جليل عاري الرأس حافٍ لابس قميصاً بيضاء فوقها رداء اسود مسدولٌ على كتفيه . وقف في الباب ورأسه منحنٍ فوق يديه المضمومتين على هراوته . ولما فتحت دخل دون استئذان وسار توًا الى مكتبي وجلس هناك على كرسي امامي . فاخذني من امره العجب . ولكن قبل ان بادرته بالحديث قال : جئت احقق امنيتك وامدك باخر من اراني . فقلت والدهشة تملأ نفسي . ومن انت يا سيدي . فقال : انا هو .

— زدني علماً .

— هو الذي يخطر الآن في بالك وتحير نبوءته قلبك .

— يالله ! انت اشعيا بن آموص ؟

— نعم انا اشعيا .

فنهضت على الفور عن كرسي . وقبلت يد النبي . ولما رأيته

قد تبسم تشجعت وقبلت ايضاً شفتيه ولا تزالا ملتهبتين ناراً . ثم تجاسرت فقلت : جئتنا يامولاي وقت العشاء فهلا باركت الخوان واكلت معنا من عدس لبنان ليصير بيننا كما تقول العامة خبز وملح . فاومأ برأسه مبتسماً وتقدمني الى غرفة الطعام . وبينما نحن في طبخة يعقوب بادرته بالحديث فقلت ألم تتنبأ يامولاي منذ الوف من السنين بجيل يرعى الذئب والحمل فيه معاً والاسد يأكل التبن كالبقر والناس يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ؟ فَحَنا النبي رأسه مجيباً بالايجاب .

او لم تقل في رؤساء اورشليم انهم عصاة وشركاء اللصوص وانهم يحبون الرشوة ويتبعون الاجود وأن الرب سيقطعهم من اسرائيل ؟ فَحَنا النبي رأسه ثانية . فقلت : وها قد مضى على ذلك يا صاحب النبوة الوف من السنين والعالم لم يزل كما كان يوم صببت عليه شآبيب غضبك . فاجاب اشعيا قائلاً : ان الوف السنين التي مرت على نبوءاتي هي كالدقائق في عين الله . وان الاجيال بالنسبة الى الابدية هي كالساعات بالنسبة الى الاجيال فلا يريبك كلامي . ردد نبوءتي ولا تخف . بشر بالمدينة العظمى في بلادي وبلادك ولا تياس . قال هذا وهمَّ بالانصراف . فاستأذنه بسؤال آخر فقلت : وكيف كان يكلمك الله ياصاحب النبوة ويطلعك على غيب الامور ؟ فقال النبي : مثلما انا اكلمك الآن . وقبل ان فتحت الباب استحال شعلة نار . وتوارى عن الابصار

لا تظنوني مازحاً ايها السادة . فان للانبياء المقام الرفيع في العالم الروحي . ولا تزال لهم تلك السطوة الصالحة على الانفس السامية . وانك اذا حككت نفس النابغة في الناس لتجد في لبها شيئاً من روح النبوة . المدينة العظمى اذاً هي التي تتم فيها نبوة اشعياء . هي التي يسير الذئب والحمل والنمر والجدي فيها معاً . هي التي يرتاح فيها الناس من شرور اصحاب السيادة الدينية هي التي تنقطع فيها سليلة اولئك المفترين على الله وانبيائه . الجالسين على عروش القداسة الكاذبة . القابضين على صولجان الخرافة . المتوجين بتيجان الجهل والتعصب والطغيان . ان مصيبة الشرق في رجال الدين والكهان لا في الانبياء والاديان . المدينة العظمى هي التي يسود فيها العلم والحرية والاخاء والوفاء . هي التي تنتصر فيها القوى الروحية على القوى المالية . والقوى العقلية على القوى المادية . هي التي تطبع فيها آلات الحرب معاول ومحارث ومناجل . هي التي تشيد فيها الصروح والمعاهد لارباب الموسيقي والشعر والتصوير . ولربات الفنون والجمال . هي التي يكثر فيها من امثال علي بن ابي طالب واشعيا بن آموص وذاك الامير العربي الذي ساد قومه لانهم احتاجوا الى علمه واستغنى عن دنياهم . اي سادتي . ان المدينة التي ينبغ فيها اعظم الرجال واعظم النساء لهي اعظم مدن العالم وان كان سكانها لا يتجاوزون عدد سكان الفريكة .

قيمة الحياة [1]

ايها السادة والسيدات .

عند ما وصلتني دعوة جمعيتكم لاخطب في حفلتها السنوية هذه كنت مهتماً بانجاز تأليف جئت في بعض فصوله على ذكر اجدادنا الفينيقيين . فسرني ان ارى شيئاً من علو همتهم ونشاطهم في ابنائهم الصيدونيين . سرني ان ارى مصابيح العلم والعرفان تضيء على هذه الشطوط القديمة التي نشأت في ربوعها اللغة وكبرت فيها همة الفينيقي التجارية والعقلية فجاء بما يدهش الافرنج حتى اليوم من آيات الفكر الباهرات . ومن غرائب الاكتشافات والاختراعات . سرني ان اري روح اولئك الاجداد الكرام تنبعث اليوم فينا فتنهض بنا الى العلياء . وعجبت بصدف ترينا في صدف الحوادث لؤلؤ الاماني . فلبيت الدعوة على ما كنت فيه من شغل شاغل وتأهب للسفر مزعج حباً بزيارة مدينتكم وبمساعدة هذه الجمعية الوطنية في مشروعها هذا اذا كان في حضوري ماينفع وفي كلماتي ما يفيد . على اني في قراءتي كتاب الجمعية وقفت عند عبارة مدهشة فيه والظاهر ان كاتبه الكريم طويل الباع في طرق الاطراء واساليبه . فبعد ان غلاني بالغلو واغرقني بالاغراق . رغب اليَّ ان

(١) خطبة القيت في حفلة جمعية الخدمة الوطنية بصيدا في ١١ اذار سنة ١٩١٠

اتحفكم بخطبة « لم تفتق رتق سمع ، ولا خطب مثلها في جمع » – السجعة له لا لي – فقلت في نفسي وماذا يبتغي الصيدونيون مني وما انا بصاحب معجزات او كرامات . ان خطبة مثل هذه ايها السادة في زمن كثرت فيه المنابر والمطابع لا يستطيع ان يأتي بها بشر مثلي . لا جديد تحت الشمس ولا فوقها . فالمذنبات التي لا نراها نحن الا مرة في حياتنا مثلاً قد مرت لا شك في فلك الارض بمرأى من اسلافنا مرات عديدة في ما مضى من الزمان . لا جديد اذاً فوق الشمس . وصوت الحقيقة الذي احب ان اسمعكم اياه هذه الليلة طالما ردده قبلي العلماء والانبياء . لا جديد اذاً تحت الشمس . على انني استطيع ان احدثكم بلغة لم تسمعوها بعد اذا كانت بغيتكم تنحصر في مجرد رؤيتي واستماعي خطيبا . يمكنني ان احدثكم في عضارطة (١) السياسة ودهاقينها (٢) ، الذين يلهوجون (٣) اعمالهم ويلهوقونها (٤) . او في زرازرة (٥) يمشون في الارض سبهللا (٦) ، ولا يحسبون سواهم للمجد أهلا ، او في شباهلة (٧) يجمشون (٨) العجنجرات (٩) ، ويعدون ترهات العصر

(١) العضارط الخادم على طعام بطنه والاجير واللئيم (٢) الدهقان « معربة » رئيس الاقليم (٣) لهوج الامر لم يبرمه والشواء لم ينضجه (٤) لهوق العمل لم يحسنه (٥) الزرزار البطرك « اعجمية » (٦) جاء الرجل سبهللا اي مختالاً وغير مكترث (٧) سبهل بطال كسل (٨) جمش غازل (٩) العجنجرة من النساء الخفيفة الروح

ايات منزلات ، او في رعابيب (١) يسمدن (٢) في المركبات ، او يتبهنسن (٣) في العرصات ، ويحسبن المخشلب (٤) على صدورهن درراً وريش الطيور على رؤوسهن تيجاناً . او في صفاريت (٥) من الادباء يطوفون حول القصور المشمخرات (٦) ، علهم يفوزون بشيءٍ من اعلاق (٧) السراة ، او في خرّيت (٨) من ولاة الامر خيدع (٩) اذا استذريت (١٠) به قادك الى محطمة سجيل (١١) . او في غطريف (١٢) كبير ، ترّفته الدنانير ، وحسدته على أذنيه الحمير ، او في متنطع مخرنبق (١٣) دفطس (١٤) وقته في حشو جوجوه (١٥) بما لا يفيد من العلوم . او في — ولكن البساطة اولى واشفى . مالنا وخطبة « لم تفتق رتق سمع . ولا خطب مثلها في جمع » فها قد اسمعتكم ما يفتق الاسماع حقاً بل يفلق الصخور .

(١) الجارية الرعبوب الحسنة الرطبة الحلوة الناعمة (٢) سمد الرجل رفع رأسه تكبراً (٣) تبهنس تبختر (٤) مخشلب خرز من الزجاج (٥) الصفريت الفقير (٦) اشمخر طال والمشمخر من الجبال العالي (٧) العلق النفيس من كل شيءٍ (٨) الخريت الدليل الحاذق الذي يهتدي الى آخرات اي مضايق المفاوز وطرقها الخفية (٩) الخيدع من لا يوثق بمودته (١٠) استذرى بفلان التجأ اليه وصار في كنفه (١١) سجيل وادٍ في جهنم والمحطمة باب فيها (١٢) الغطريف السيد الشريف (١٣) تنطع في الكلام تعمق وغالى وتأنق . والمخرنبق المطرق الرصين (١٤) دفطس اضاع (١٥) الجوجوء الصدر .

وهذه عشرون وخمس فعلات لغويات استغفر الله منها .

ساحدثكم الليلة في موضوع قريب منا كلنا . وبلغة تسمعونها كل يوم . وبعبارة تفهمونها وانتم الى اشغالكم سائرون . موضوعي قيمة الحياة . واريد بادئ بدء ان اسدل ستاراً على الماضي وآخر على المستقبل فاحصر الحياة في الحاضر واسألكم سؤالاً : لو علمتم حق العلم ان الحياة صدفة من صدف الطبيعة وان لا سابق قصد لها ولا لاحق . لا قوة مدركة وراء المهد ولا وراء اللحد . فترسلها وتبعثها عقلاً وروحاً وبكلمة اخرى لو تأكدتم ان الحياة مادية محض والموت ضجعة ابدية فكيف تعيشون ياترى وكيف تعملون لترفعوا من قيمتها وتجنوا الناضج اللذيذ من ثمارها ؟ اتجعلون قاعدتها الاساسية قاعدة التجار والمتمولين ان لا حقيقة في العالم الا المال ؟ اتقولون قول السياسيين والمسيطرين ان لا حق في العالم الا للقوة ؟ اتذهبون مذهب فلاسفة اليونان الكلبيين ان لا حقيقة في العالم الا اللذات . او تقولون قول حشاشي الزمان القديم ان لا حقيقة في العالم على الاطلاق وكل شيء مباح ؟ لو تأكدنا ان الكون مركب من المادة والقوة فقط وان الحياة كذلك أفينبغي ان نعيش كالحيوانات ؟ وان نحن فعلنا انأمن شر انفسنا ان لم اقل شر الاقوياء فينا . اذا احب احد الناس ان يعيش كما لو كان هو العالم وبيته الدنيا واستطاع الى ذلك سبيلاً أيستطيع ان يذهب على هواه دون ان تذهب حياته ضحية الاطماع والاهواء ؟ ولو ضحاني هذا السيد العظيم الاثيم

وضحاكم على عرفات قدسه ومجده واهوائه ايامن ياترى صولة الجماعات حين يستيقظون فينهضون ؟ ايأمن هو ويد فوق يده تأخذ بناصيته يوم يثأر الحق باعدائه ؟

حكم عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنة وهو لا يحسب ان في العالم من ينبغي ان تراعى حقوقهم وحياتهم سواه . فماذا كانت عاقبة بغيه وجوره واثرته ؟

لا انكر ان نظرة عمومية سطحية في احوال الانسان الاجتماعية ترينا الشرير يسعد بشره والصالح يشقى بصلاحه . ولكن ذلك لا يكون الى الابد . وانما يظهر كذلك لمن لا ينظر في الامور الى ما وراءها . لمن لا يرى في الحياة غير ظواهر الحوادث . مات كثيرون ممن قاسوا اليم العذاب من الدور الماضي دون ان يشاهدوا نكبة سلطانه واعوانه . ماتوا يائسين من الحياة التي ينتصر فيها مثل هولاء الاشرار الكبار . ولكن قصر نظرهم فيئسوا . ولو تشوفوا الى المستقبل وكان ايمانهم شديداً بالعناية التي لا تترك الاثيم عزيزاً الى الابد لما ماتوا يائسين . ان ما نراه نحن اليوم مثلاً وننفر منه ساخطين حانقين ليراه غداً آخرون فيستجلون فيه اليقين . ان شر الامس لينتج اليوم خيراً وخير اليوم قد ينتج غداً شراً . اجل سادتي . ان في الاشياء والاكوان عناية لا يعقلها الانسان ولا يدركها ارباب العرفان . ان في الحياة اسراراً تدك العروش وتزعزع الجبال لو

تجلت كلها دفعة واحدة في آن واحد . ولكنه تعالى عليم رحيم . فهو لا يمكّننا الا مما نحتاج أليه من القوات الخفية في الحياة فنستخدمها لو عقلنا لخيرنا ومنفعتنا . ونقف صابرين هادئين ثابتين امام مفظعات الوجود ومبهجاته . وعندي ان هذه الاسرار تتجلى للانسان تدريجاً على حسب ارتقائه العقلي والروحي . ذلك لان الحياة سلم اوله الحيوان . ووسطه الانسان . وآخره الملاك . وقد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد ترقت فيه القوى الحيوية كلها اي القوى الحيوانية والبشرية والالهية الى منتهى الدرجات . فالانسان مركب من هذه القوى كلها وهي كامنة فيه الى الابد . فان رعى احداها دون الاخرى يقف في سلم الارتقاء وطبائع الحياة فيه ناقصة فاسدة . نعم اني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة الى ان يؤيد العلماء اعتقادي . فاني لمؤيده بما اعرفه وبما اجهله من لوح هذا الوجود . من الحياة ومن الاكوان . ان في نشوء الانواع وارتقائها عناية الهية عظيمة . والناموس الطبيعي الذي يكثر من ذكره العلماء انما هو مشيئة الله في الاشياء . اني لأرى يد الله في كل مظهر من مظاهر الحياة . واؤمل ان ارى ولو بعد موتي بمليون من السنين روح الانسان متجلية في كل مظهر من مظاهر الله .

اراني تجاوزت الحدود الوهمية التي حصرت هذا الوجود ضمنها فاصبحت والماضي والمستقبل يتجاذبان في المعقول والمحسوس .

وكيف نستطيع ان ننظر في الحياة نظرة بعيدة صائبة دون ان نتلفت الى الماضي ونتشوف الى المستقبل . كيف يمكننا ان نقيسها لنعلم قيمتها وكل شيء فينا وحولنا ينطق بما مضى وبما هو آت مما هو قسم جوهري من الحياة البشرية ? احببت ان احصر الموضوع في الحاضر لاريكم ان الحياة وان كانت مادية محض لا يستطيع الانسان ان يذهب فيها حسبما يشاء ويسترسل الى ملاذه واهوائه دون ان تختر نفسه . فيغلظ شعوره . فيكثر عثاره . فيشتد بلاؤه . وان شقاء الناس اليوم لناتج عن هذه الحياة المادية الحيوانية التي يكبرونها ويعززونها ويعرقون دماً في سبيلها . ألا اننا نعيش اليوم كما لو كانت الحياة منحصرة في (البورص) والمخزن وغرفتي الطعام والنوم . نعيش كما لو كان قوام الحياة في جمع المال وفي تربية دود الاهواء والشهوات . ويالها من دود تحوك للنفس وللجسد اكفاناً من الحرير . نعيش كما لو كنا الات هضم واكثرها في هذا الزمان مصدئة . وانصاب مجد واكثرها متهدمة . فالسياسي لا يرى في الحق قوة تستحق الاعتبار ان كان الحق لا يؤيده في ضلاله وفساده . ورجال الدين يصمون اذانهم عما جاء في كتب الدين من سديد التعاليم ويستخرجون من بعض الايات والعقائد قواعد تمكنهم من الضغط على الانفس والعقول لتكون لهم في ذلك سلطة ما انزلها الله على احد من الناس . والصحافيون يزفون ثناءهم لهذا الخاطب ويبذلون

شهادتهم لذاك الطالب حباً باعلان او اشتراك يحرزونه . او انهم يوقفون الحق على رأسه غواية ونكاية . او انهم يتحاملون على الناس ويثيرون المفاسد والفتن حباً بالظهور والاشتهار . والغني فينا يعيش كما لو كانت الاموال تقيه الموت وتكسبه الخلود . والتاجر يضرب اخماساً لاسداس ليل نهار فيستنبط طرقاً بل حيلاً جديدة للكسب والاثراء . والوجيه الفاضل الواقف على شفير الافلاس يكتد الفلاحين الفقراء ويعرقهم ليؤيد فيهم منزلته العالية ومقامه الرفيع الشأن . ترانا نعيش كأن الحياة بنت يومها منحصرة بين شارقة وغاربة، مركّبة من امشاج لا اثر فيها للعقليات والروحيات . بلى . نعيش كما لو كنا مركبين من السنة ومعد واكباد فقط فنحسن اللقلقة والكبكبة والشر الثالث الذي ذكره النبي في حديثه الشريف ولا نحسن سواها . نعيش لاهوائنا واطماعنا وملاذنا . نعيش لمجد في العالم باطل . نعيش لوجاهة فينا فارغة . نعيش لازياء تستعبدنا. لعادات واصطلاحات تسوقنا الى المذلات. وفوق ذلك نعيش في الخداع والجربذة والتلبيس . نخادع لخوف فينا يسودنا . نلبس على الله والناس لغايات في النفس خبيثة ذميمة . نتآخى طمعاً بربح من هذا الاخاء . نتصادق حباً بما في الصداقة من عائدة مادية بائدة . وقد قال المتنبي :

ولما صار ود الناس خباً ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه ... لعلمي أنه بعض الانام

* * *

كانت لامرىء كرمة يأوي الثعالب اليها ويفسدون فيها . فنصب هناك مفزعة او خيال صحراء ليردعهم عنها فجازت الحيلة على الثعالب وعجبوا لصاحب كرمة يحرسها ليل نهار ليقطع نصيبهم منها . الا ان احدهم وكان اشجعهم وادهاهم بادره الريب من ذلك فجاء الكرمة ذات يوم ووقف ساعة امام المفزعة دون ان يفزع منها . ثم تقدم اليها قليلاً قليلاً وضربها بيده فوقعت الى الارض . فضحك ثم ضحك ورفع فوقها جنبه . وراح يدعو اخوانه الى اجتماع وطني سياسي . وخطب فيهم قائلاً : ان الانسان لخداع مكار . فقد حرمنا نصيبنا من الكرمة بخيال نصبه فيها . ومن رأيي ان نحذو حذوه لنفوز عليه . فاقترح عليكم نصب خيال اسد هناك لننال قسمتنا من الكرمة . فصفق الثعالب الجياع له ونصبوا في كرمة الانسان مفزعة بهيئة الاسد . ولما جاء الانسان في اليوم التالي ورأى الاسد واقفاً هناك ينظر اليه وقف شعر رأسه وهرول راجعاً الى بيته . وكذلك نال الثعالب الجياع قسمتهم من الكرمة . خدعهم الانسان بخيال فخدعوه بمثله .

وكم من خيالات وبعبعات تحفظ اليوم كياننا وتدفع عن شرفنا الوهمي عاراً وهمياً . كم في حقول الدين وصحاري السياسة وكروم التجارة من مفزعات لو ضربت مرة لاصبحت مفضحات . اجل ان الحياة اليوم سواء كانت في ارقى مظاهرها

الاوروبية او في افخم مظاهرها الشرقية انما هي حياة خاسئة فاسدة ناقصة . هي عند الغربيين محض مادية تجارية . وامست عندنا لا مادية تعرف ولا روحية . حياتنا ايها السادة . وان كنا لا نزال نؤم الكنائس والجوامع كاجدادنا. ان هي الا العوبة في روحياتها واضحوكة في مادياتها . هي مزيج فاسد من الاثنين . وهذا سبب الشقاء والبلاء والفساد في طبقات المجتمع كلها . بل هذا من وجهة خاصة السبب الاصلي في انحطاط الشرق والشرقيين . ولكني اقول . وحق ما اقول . ان سيادة الاوربيين في الشرق لا تدوم طويلاً اذا كان اساسها القوة المادية فقط. وان نهضة الشرق لا تنجح اذا كانت أسّها الروحيات فقط . الكتب المقدسة تصلح الحياة . ولكنها لا تعمر البلاد . والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . اذن كتبكم المقدسة احفظوها وكتب العلم عززوها . وكل كتاب ايها السادة يساعد على حفظ الحياة وتحسينها وارتقائها هو عندي كتاب مقدس كريم . والحياة الصحيحة القوية الجميلة السابغة هي التي تتغذى بكل كتاب مقدس روحياً كان موضوعه او مادياً . ذلك لانها مركبة من الاضداد . ذلك لانها مادية روحية عقلية . ومن النواميس الطبيعية المعروفة ان قوى الانسان تنمو وتشتد في التمرين والممارسة . فاذا كنا لا ندارس الا قوانا الحيوانية وفينا قوى اخرى عقلية روحية نظل ولا شك في درجة واطئة من سلم الحياة . بل

نظل والجهل والبلاء اكبر ما في حياتنا . ذلك لان القسمين الكبيرين فيها اعتراهما الفساد من الاهمال . ولو مرّن المرء قواه العقلية والجسدية فقط لظلت الروح فيه مهملة مغبونة . وكثيراً ما تكون تشوقات النفس المظلومة سبباً لعوارض وامراض شتى . كثيراً ما يكون شقاؤنا ناتجاً عن فساد احدى قوانا العقلية او الروحية .

وها اني وصلت الى الحد الذي ينبغي ان نعرّف عنده الحياة لنعرف كيف نقيس قيمتها . قد اتضح مما تقدم ان الحياة اصلاً انما هي قوات عقلية روحية مادية تظهر في الناس بمقادير متباينة ناقصة ولكنها كامنة بالقوة وغير محدودة في كل نفس بشرية . قلت « انها كامنة بالقوة » والعبارة فلسفية وضعية لا احب ان ارددها واكثر من مثلها . على انني اورد الفكر بعبارة بسيطة . ان في كل منا قوىً غير محدودة من هذه الينابيع الثلاثة تظهر فينا او في نسلنا بمظاهر شتى طوعاً لاحوال نعقلها اذا اعتبرنا ولاسرار لا نستطيع اليوم ادراكها . هذي هي الحياة نظرياً . مبدئياً . واما عملاً — آه لو كانت حياتنا الدنيا ابتسامة دائمة تبتدئ بالسرور وتنتهي بالابتهاج . آه لو كانت حلماً من احلام الشعراء او لحناً مطرباً مفرحاً من الحان الموسيقيين! ولكن الحياة في نظر احد القديسين انما هي عقاب الانسان في هذا العالم . وفي نظر الفيلسوف هي سلسلة من حديد المصائب فيها حلقات قليلة

من ذهب العزاء والهناء . وفي نظر الشاعر هي هيئات هيولية مخزنة الاسرار سامية غامضة. هي خيال زائل لحقيقة ازلية دائمة . وفي رأي سيدنا سليمان : كل شيء باطل وقبض الريح . وفي راي جمهور الناس انما الارض وادي الدموع . فالقديس اذا والفيلسوف والشاعر والحكيم والناس كلهم مجمعون على ان حياتنا الدنيا لا تساوي العناء الذي نقاسيه من اجلها . بل لا تساوي العرق الذي يتصبب من جباهنا في سبيلها . ولكني ارفع على هذه الاراء كلها رأياً اخر اود لو سمعتموه وحفظتموه وتمثلتم به في كل موقف وفي كل آن. الا ان الحياة صالحة اذا كان المرء صالحاً . وهي جميلة اذا كانت نفس المرء جميلة . والانسان لا يكون صالحاً ونفسه لا تكون جميلة اذا كان لا يربي ويرقي فيه قواه الروحية والعقلية والمادية كلها على السواء . ومن النادر ان نجد في العالم اليوم حياة تامة الاجزاء ارتقاء ونشاطاً وادراكا في شخص واحد. فاذا كانت القوة العقلية عظيمة في احد الناس راقية. تكون القوة الروحية او الجسدية فيه منحطة . والعكس بالعكس .

ودفعاً لما قد يكون في كلامي من الابهام ازيدكم ايضاحاً بما اريده بالحياة التامة الاجزاء ارتقاء وفهماً ونشاطاً . فالقوة الحيوانية التي ينبغي للانسان ان يرعاها ويتعهدها بالتربية تظهر نتائجها في صحته وصحة نسله . والقوة الروحية تظهر في شعوره الراقي وحبه . والقوة العقلية في ادراكه ونباهته وحكمته .

واعلموا ان العالم مثلاً يكون غالباً قوي الادراك ضعيف الشعور والشاعر شديد الشعور ضعيف الادراك . والفلاح او البدوي يكون غالباً شديد الجسم ضعيف الشعور قليل الادراك . اما قيمة الحياة في كل من هؤلاء وان كانت ناقصة فتختلف بالنسبة الى ما يأتون به من الصالحات الباقيات . فقد تكون قيمة حياة البدوي في نسله اعظم منها في نسل العالم . وقد تكون في الشاعر اعظم منها في العالم العلامة والحبر الفهامة .

قد لا ينتبه ارقى الشعوب حتى في هذا العصر الى ما في الوجود من دواعي الارتقاء كلها ومن الصحة والسعادة . ففي الشرق نظن الوسخ عرضاً . والخمول نعمة . والخبل مصدراً للتجليات الروحية . وعن هذه الاوهام ينشأ التقشف والزهد وما يصحبهما من اذلال الجسد واماتته . وفي الغرب بدأنا نرفع من اسباب النظافة والصحة الى حد لا تعلوه اقصى الغايات . وقد قال الفلاسفة هناك ان من واجبات الانسان الاولية ان يكون حيوانا نشيطاً قوياً . ولكن اذا نحن اهملنا ترويض الاجسام فهناك بدأوا يهملون ترويض الارواح . وفي الامرين نقص ظاهر . على الانسان ان يعتني على السواء في تربية وترقية قواه العقلية والجسدية والروحية كلها . سأضرب لكم مثلاً من هذا النقص في التربية حتى في مشاهير الرجال . في الفيلسوف سبنسر كانت قوة الادراك راقية الى حد نادر المثال عجيب . واما قوة الاحساس

والعُطف – اي القوة الروحية – فكانت فيه اضعف مما قد تكون في احد سكان اواسط افريقيا • وفي الشاعر دنته نجد القوة الروحية عظيمة في شعره كما كانت في حياته • واما القوة العقلية اي قوة الادراك فما هي كذلك • ومثل هذه الموازنة تصح بين ابن الفارض وابن رشد • او بين البهاء زهير وابي العلاء • وعندي ان الفيلسوف سبنسر والشاعر دنته • او العالم باستور والقديس اوغسطينوس • او ابن الفارض وابن رشد ليتجسدان في رجل المستقبل العظيم • اجل • سيجبل الله انساناً جديداً كاملاً من الطينتين • النصفين • وهو على كل شيء قدير •

من هذا يتضح لكم رأيي في ماهيــة الحياة واقصى غاياتها • اي سادتي • ان الحياة الحقة هي التي تجمع بين محاسن فلسفــة الروحيين وفلسفة الماديين • هي التي يشارك صاحبها ابيكوروس في لذاته وافلاطون في روحياته وسقراط في ادراكه وحكمته • هي التي تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح • هي التي تؤلف بين اول درجات سلم الحيــاة وآخرها • بــين الحيوان مصدرها والملاك محجتها • مثل هذه الحياة كنز من كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحد •

اما حياتنا اليوم – حياة عالمنا او تاجرنا او كاهننا او فلاحنا – فهي ناقصة • ضيقة • خاسئة • فاسدة • وكذلك نتائجها • فكم من عمل فيه اخلاص وما فيه شيء من العقل ? وكم من عمل فيه عقل

وما فيه شيء من الاخلاص ؟ وكم من عمل فيه اقدام وشجاعة بل قحة وسلاطة وما فيه ذرة من العقل والاخلاص ؟ ومع ذلك اننا نستطيع ان نجعل حياتنا اليوم ذات قيمة تذكر اذا سرنا الى غرضنا بحزم وعزم ونشاط وثبات واقتطفنا من الاعمال الناقصة ما هو صحيح ناضج من ثمارها . اذا كنا حقاً احراراً . اذا كنا صادقين مخلصين محبين مدركين فنعرف اين تنتهي حريتنا واين تبتدىء حرية جارنا . نمهد بشيء من العلم والصلاح سبيل الحياة الحقة التي وصفتها . الحياة البشرية المستقبلة التامة الاجزاء ارتقاء وصحة وفهماً . نعم ان قيمة مثل حياتنا اليوم لهي ناقصة تافهة ولكنها بالنسبة الى ما هو دونها تستحق الاعتبار . حسبنا ان تنقص فينا اليوم الجربزة والتلبيس والخداع فتعلو بقدر ذلك النقص قيمة الحياة . حسبنا ان يتقدم في كل بلد احد الناس الاقوياء بصلاحهم . الجريئين بفكرهم . فيضرب احدى مفزعات الناس ويحطمها . الخيالات والبعبعات والاوهام والخزعبلات . كلما زال شيء من هذه ترتفع بقدر زواله قيمة الحياة .

قل لي اذاً ايها المحترم ما هو اعتقادك الحقيقي فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ياصاحب السعادة والعزة ما هي امالك في اعمالك فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الصحافي الحر ما هي غايتك الكبرى في تسويد الصحف فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الغني ما هو قصدك الاولي

في جمع المال فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الانسان ما هي اسرار قلبك اقل لك ما هي قيمة حياتك . قولي لي ايتها الامرأة ما هي غايتك القصوى في الدنيا اقل لك ما هي قيمة حياتك .

اخواني . اخواتي .

ان قيمة حياتنا اليوم ما نزرعه في القلوب من البر والصلاح وفي العقول من العلم والحكمة . قيمة الحياة ما يعود الينا من ثمار الحب الذي نزرعه في صدور الناس . قيمة الحياة ما يأتي به كل منا من الصالحات الباقيات مادية كانت او عقلية او روحية فالغني الذي يقدر حياته بما عنده من المال يرفع من قيمتها اذا بذل من ثروته لنشر المعارف . واستئصال الامراض . وتخفيف وطأة البؤس والظلم في العالم . والعالم الذي يقدر حياته بما عنده من العلم يرفع من قيمتها اذا محص علمه من الغش والخداع . من السفاسف والاوهام . وبثه في الناس صافياً لوجه الله . والمتقشف الذي يقدر حياته بما عنده من الزهد والتقوى يصنع خيرا اذا كان تقشفه يفيد في الاقل افادة سلبية فيخفف فيناوطأة زخرف هذه الحياة المدنية . على ان العالم والغني والزاهد قلما تنفع حياتهم وقلما تكون ارفع قيمة من حياة احقر الناس واجهلهم اذا كانوا لا يعملون لغير انفسهم . وشر الحياة حياة لا عطف فيها ولا اخلاص ولا حب ولا حماسة .

واما رجل المستقبل · ذاك الذي تتم فيه اجزاء الحياة كلها وتتساوى صحة ونشاطاً وفهماً ورقياً · فيتمكن ان شاء الله من الجمع بين حسنات العالم والغني والمتقشف · بين محاسن العقل والجسد والروح · بين الخيال والحقيقة · بين جمال الشعر وجمال الحكمة وجمال الصحة · مثل هذا الرجل يعيش في الحاضر كما لو كان الحاضر الابدية كلها فلا يعمل عملاً لا يشترك فيه عقله وروحه وقلبه · هو يشغل رأس ماله في اسواق الحياة الثلاثة فلا يكون عالماً عاجزاً لا يحسن التصرف في غير منزلته · ولا غنياً جاهلاً · ولا زاهداً اخبل · هو الذي يحيي قواه كلها ويرعاها فيغذي العقل والروح دائماً كما يغذي الجسد · هو الذي يروض نفسه للشدائد كما لو كانت من ضرورة الحياة · هو الذي لا يعول في اموره على احد من الناس · هو الذي لا يحترم في البشر الا العلم والذكاء والصلاح · هو الذي لا يحابي في سبيل العدل احداً · ولا يخشى في سبيل الحق انساناً · هو الذي يعيش لنفسه ولربه وللانسانية في وقت واحد · ان حياة مثل هذا الرجل لكنز من كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحد ·



هملت وشكسبير (١)

يتوقع مني بعض الناس ان اوجه كلمة الى اولئك الذين اساءوا فهم خطابي الاخير في الكلية الاميركية . ونشروا على صفحات الجرائد مثالاً من تسرعهم في النقد وبطئهم في الافتهام . ولكنني آليت على نفسي ألا اوضح لاحد وألا اجادل واناقش احداً . فان الذين يعرفونني ويفهمونني بغنى عن الايضاح والذين لا يحبون ان يعرفوني ويفهموني فانهم لا يقتنعون ولا يفهمون . وان صرفت ما بقي من حياتي شارحاً مفسراً موضحاً . لذلك لا اضيع وقتي فيما لا طائل تحته لا لكم ولا لي . لذلك لا اجادل احداً ولا اناقش بشراً . بل جعلت مبداي وخطة حياتي هذه الكلمات الثلاث « قل كلمتك وامش » . فاننا اذا وقفنا لنسمع المداحين والهجائين الناطقين بالحجارة والناطقين بالازهار . ننصرف عن بث المبادئ الحرة والتعاليم السديدة في الناس الى ما يعرقل سعينا ويقعد بهمتنا ويكدر صفاء افكارنا ويعودنا مقاتلة الناس لا تهذيبهم . لذلك جعلت شعاري « قل كلمتك وامش » .

هذا هو مبداي وهذي هي خطة حياتي الكتابية . وهذي هي نصيحتي لاخواني الادباء اجمعين . بناء على ذلك سأقول كلمة

(١) خطبة القيت في مسرح زهرة سوريا ببيروت اول ليلة مثلت فيها رواية هملت .

في رواية هذه الليلة كي لا اخرجكم من الموضوع الجميل الذي انتم فيه • واني لا استحسن قطعاً الخطابة في المواضيع السياسية والاصلاحية في مثل هذه المواقف الادبية • فانها تصرف افكاركم عما جئتم من اجله هذه الليلة وتقطع سلسلة الخيال التي تنقلكم من المكان الذي انتم فيه الى مكان الرواية وزمانها • وهذه من شروط الاتقان في التمثيل • فان الممثل الذي لا ينسيني وانا جالس على ذلك الكرسي امام هذا المرسح كوني في بيروت وفي الجيل العشرين • الممثل الذي لا ينقلني بمغناطيس صناعته الى الدانيمارك في هذه الرواية لاشاهد هناك مليكها واميرها ورجالها واشباحها يعانون تكاليف الحياة لا يكون قد احسن اوليات هذا الفن •

يسرني جداً ان ارى روايات نابغة المراسح بل نابغة العالم تمثل في سوريا • فان شكسبير من سائر الشعراء كجبل الارز من سائر جبال لبنان • ورواية هملت من روايات شكسبير كضهر القضيب من جبل الارز • بل شكسبير هو امير شعراء العالم ورواية هملت هي اميرة روايات شكسبير وكم قام بعده من المقلدين من الانكليز والالمان والافرنسيس فاجادوا في طريقتهم ولكنهم لم يشقوا غبور مؤلف هذه الرواية الفريدة • ومن مميزات هذا الشاعر العظيم انه لم يترك عاطفة من العواطف البشرية كلها • دقيقة كانت او غليظة • واطئة او سامية • راقية او وحشية • ظاهرة او غامضة • الا والبسها من شعره سربالاً شفافاً جميلاً

واستخرج منها حكمة سامية جليلة . فاذا ذكرنا الحب نرى في « روميو وجوليت » ارقه واشرفه واسماه . وفي « ترولس و كريسيدا » احطه واكرهه وادناه . واذا ذكرنا الغيرة يدهشنا بل يخجلنا تمثيله اياها في رواية « قصة من قصص الشتاء » بصورة خبيثة صفراء خالية من الوان العطف والسماحة والحشمة . ويعجبنا بل يسحرنا في رواية « اوتلو » الشهيرة . تلك الرواية التي تستنشق الغيرة فيها انقى هواء البحار والجبال . وما فادى الزنجي الابي « اوتلو » « بدرة اثمن من قبيلة كبر » الا كرها وفي سبيل عرضه وشرفه . بعد ان افرغ الخائن يعقوب كل سمه في قلب من اخلص له الوداد . واذا ذكرنا الانتقام نشاهده في افظع واوحش هيئاته في « تيتوس اندرانيكوس » وفي اشرف واسمى مظاهره في رواية الليلة . وفي هذه المقارنة تظهر عظمة الشاعر الذي يسقط الى اعمق اغوار الحياة فيستخرج منها درر الشعر والفلسفة . ويرتقي الى اعلى السماكين فيجيئنا بكواكب من الحكمة السامية والحقيقة الالهية .

هذه ست روايات ذكرتها موجزاً لأمثل مقدرة الشاعر واتساع نطاق افكاره وتصوراته وفلسفته وشعوره . فمن « كريسيدا » الى «جوليت» ومن « أندرانيكوس » الى «هملت» ومن « بوليكسين » الى « اوتلو » ننتقل من جحيم الحب الى سمائه . ومن ادغال الانتقام الى ذرواته . ومن اكواخ الغيرة الى قصورها . وقد تجتمع اسمى مظاهر هذه العواطف كلها في دور

(هملت) . لذلك هي اعظم الروايات التي تمثل على المسارح اليوم : هي رواية منقطعة النظير فريدة في بابها وجلبابها . فالضمير والفلسفة فيها يمترجان فيتماوجان بين التردد والاقدام . وفيها الدقائق والحقائق تسيل حباً . فتتلون غضباً فتهيج انتقاماً . وفيها من الشعر والتصور والفصاحة ما لا يجتمع مثله في رواية واحدة لغيره من الشعراء . وفيها . وهذا اهم ما فيها للممثلين . غوامض اطوار (هملت) وشذوذاته . فان دور (هملت) للممثلين هو كالنور للفراشة . وندر في اوروبا واميركا من لم يحرق جنحيه من الممثلين الشهيرين في بادي، امره ولتتأكدوا اهمية هذه الرواية في عالمي الشعر والتمثيل اقول ان من مائة ممثل في انكلترا واميركا لا يحسن تمثيل هذا الدور العظيم اكثر من عشرة ممثلين. وكل واحد من هؤلاء يمثل الدور بطريقة تختلف عن طريقة سواه .وذلك لان المؤلف اكثر فيه من اوابد الفلسفة. وغوامض الحكمة . واسرار المعاني البديعة . ما يحتمل التفاسير والتأويل العديدة . لااقول هذا لاثبط من عزم هؤلاء الشبان النشيطين . فانني اكبر همتهم واثني على اقدامهم . وارجو الا يقفوا في درس هذه الصناعة الجليلة واتقانها عند حد تصفيق الناس واستحسانهم. فقد يضر المديح بالشاعر والممثل اكثر من نقد الناقدين وتحامل المتعنتين .

وان بينكم ولا شك كثيرين ممن سافروا الى اوروبا وشاهدو

فيها تمثيل الروايات . ولكنني لا اظن ان احداً منكم دخل العالم الكائن وراء الستار هناك . فان المسرح . بادواته وعجلاته وانواره واخشابه واسراره وممثليه وجدران الورق والنسيج فيه . لعالم آخر لمن يتسنى له الدخول إليه .

اذكر لما كنت امثل دوراً صغيراً في هذه الرواية مع احد الممثلين الكبار في الولايات المتحدة انني دهشت اول ليلة من امر الشبح فيها وكيفية ظهوره . فلما قال « برناردو » (ها هو ها هو) رأيت من كان يمثل هذا الدور يتخطى تحت الارض . اي تحت المسرح فسألت احد الممثلين : هلاً يخرج لتشاهده الناس ؟ فقال : بل هم يشاهدونه الان . فقلت : وكيف ذلك ؟ فاشار اذ ذاك الى مرآة طويلة في مؤخر المسرح وقال : ترى الذي يمثل دور الروح واقفاً تحت المسرح امام المرآة فينعكس خياله فيها فيخيل للناظرين انه شبح حقيقي واقف بين الارض والسماء . واذا تكلم فصوته من تحت المسرح اقرب الى حقيقة حاله . فانه اشبه بصوت خارج من القبر . وعند ما ينتهي من كلامه لا يخرج كالاحياء ماشياً بل يتحول الممثل من امام المرآة فيخيل للناس ان الروح طار في الفضاء تروا اذاً الى اي حد من الاتقان والتفنن ترتقي هذه الصناعة هناك .

وقد جاءني منذ اسابيع مجلة انكليزية موضوعة للتمثيل والممثلين قرأت فيها ان ابن السيدة إلن ترّي وهي كسارا برنار

عند الانكليز طبع رواية (هملت) على حدة في خمس مجلدات ضخمة طبعة فريدة في بابها فنشر فيها صور اشهر من اجاد في تمثيل هذا الدور من الممثلين من ايام شكسبير حتى يومنا . ورسوم الثياب ووصفها في زمن (هملت) مع المواعين والاشياء التي تستخدم على المسرح اثناء التمثيل . وفيها ايضاً وصف المشاهد والمناظر وحركات الممثلين وسكناتهم كلها وكيفية القائهم مسندةً الى تقاليد تكاد تكون مقدسة عند عشاق هذا الفن وارباه . وتباع النسخة من هذه الطبعة من رواية (هملت) بخمسة عشر ذهباً انكليزياً . فتأملوا !

اذكر هذه لتقدروا هذه الرواية حق قدرها . فانكم . مهما تعددت مشاهدتكم اياها . لترون فيها كل مرة شيئاً جديداً من رائع الحكمة وبديع المعاني وجميل الخيال .

وقد يخطر في بال البعض منكم ان كيف تكون يا ترى تأثيرات مثل هذا المسرح ومثل هؤلاء الممثلين في نفس من مثّل على مسارح اميركا وشاهد هذا الفن في ارقى مظاهره وعرف شيئاً من اسراره وخباياه . اما الممثلون فانني وان كنت لا استصوب هجومهم دفعة واحدة على روايات شكسبير وبالاخص اعظمها فانني أكبر همتهم كما قلت . واثني على نشاطهم وارجو ان يتوفقوا في سعيهم واجتهادهم ودرسهم لتوصل الى شيء راق من هذا الفن . واما المسرح او الملهى او الملعب او

فيها تمثيل الروايات . ولكنني لا اظن ان احداً منكم دخل العالم الكائن وراء الستار هناك . فان المسرح . بادواته وعجلاته وانواره واخشابه واسراره وممثليه وجدران الورق والنسيج فيه . لعالم آخر لمن يتسنى له الدخول اليه .

اذكر لما كنت امثل دوراً صغيراً في هذه الرواية مع احد الممثلين الكبار في الولايات المتحدة اني دهشت اول ليلة من امر الشبح فيها وكيفية ظهوره . فلما قال « برناردو » (ها هو ها هو) رأيت من كان يمثل هذا الدور يتخطى تحت الارض . اي تحت المسرح فسألت احد الممثلين : هلاً يخرج لتشاهده الناس ؟ فقال : بل هم يشاهدونه الان . فقلت : وكيف ذلك ؟ فاشار اذ ذاك الى مرآة طويلة في مؤخر المسرح وقال : ترى الذي يمثل دور الروح واقفاً تحت المسرح امام المرآة فينعكس خياله فيها فيخيل للناظرين انه شبح حقيقي واقف بين الارض والسماء . واذا تكلم فصوته من تحت المسرح اقرب الى حقيقة حاله . فانه اشبه بصوت خارج من القبر . وعندما ينتهي من كلامه لا يخرج كالاحياء ماشياً بل يتحول الممثل من امام المرآة فيخيل للناس ان الروح طار في الفضاء تروا اذاً الى اي حد من الاتقان والتفنن ترتقي هذه الصناعة هناك .

وقد جاءني منذ اسابيع مجلة انكليزية موضوعة للتمثيل والممثلين قرأت فيها ان ابن السيدة إلن ترّي وهي كسارا برنار

عند الانكليز طبع رواية (هملت) على حـدة في خمس مجلدات ضخمة طبعة فريـدة في بابها فنشر فيها صور اشهر من اجاد في تمثيل هـذا الدور من الممثلين من ايام شكسبير حتى يومنا . ورسوم الثياب ووصفها في زمن (هملت) مع المواعين والاشياء التي تستخدم على المسرح اثناء التمثيل . وفيهـا ايضاً وصف المشاهد والمنـاظر وحركات الممثلين وسكناتهم كلها وكيفية القائهم مسندةً الى تقاليد تكاد تكون مقدسة عند عشاق هذا الفن وارباره . وتباع النسخة من هذه الطبعة من رواية (هملت) بخمسة عشر ذهباً انكليزياً . فتأملوا !

اذكر هذه لتقدروا هذه الرواية حق قدرها . فانكم . مهما تعددت مشاهدتكم اياها . اترون فيها كل مرة شيئاً جديـدا من رائع الحكمة وبديع المعاني وجميل الخيال .

وقد يخطر في بال البعض منكم ان كيف تكون يا ترى تأثيرات مثل هـذا المسرح ومثل هؤلاء الممثلين في نفس من مثّل على مسارح اميركا وشاهد هذا الفن في ارقى مظاهره وعرف شيئاً من اسراره وخباياه . اما الممثلون فانني وان كنت لا استصوب هجومهم دفعة واحـدة على روايات شكسبير وبالاخص اعظمها فانني أشكر همتهم كما قلت وأثني على نشاطهم وارجو ان يتوفقوا في سعيهم واجتهادهم ودرسهم المتواصل الى شيء راق من هـذا الفن . واما المسرح او الملهى او الملعب او

التياترو او بالحري هذه الاخشاب المسندة التي تدعى تياترو فانها تذكرني بايام شكسبير لما كان هو نفسه يمثل ادوارًا في رواياته • فان فن التمثيل هناك ولد في مثل هذا المهد الحقير • ولا عيب ولا عار في ذلك •

ولا بأس بذكر شيء من سيرة هذا النابغة العظيم فان فيها عبرة لمن اعتبر • في ايامه اي منذ ثلاثمائة سنة كانت لوندرا شبيهة ببيروت اليوم من حيث اسواقها وابنيتها وملاهيها • ولم يكن فيها عربات ومركبات • بل كانت شوارعها دائماً كشوارع مدينتنا يوم الاعتصاب • فكان الناس يجيئون التياترو راكبين الخيل فاقتضى لذلك وجود أولاد امام الباب يستلمون هذه الجياد فيحفظونها لاصحابها الى ان تنتهي الرواية • ووليم شكسبير ايها السادة كان من هؤلاء الغلمان • ولكنه عمل عمله بنباهة وامانة واخلاص حتى اصبح بعد قليل زعيم الساسة وسيدهم • فكان الناس عند وصولهم الى التياترو لا ينادون الا شكسبير فيجيئهم هذا ويجيئهم ذاك قائلاً انا ياسيدي من رجال شكسبير • وكذلك ترى الرجل العظيم فائزًا مقدماً في اول عمل باشره . نراه فائزًا لانه اتقن العمل وثابر على الصدق والامانة فيه . وقد كان ارتقاؤه ابهى واسرع من فوزه . صعد السائس الى المسرح واخذ يمثل الادوار الصغيرة الى ان استيقظت في قلبه ربة الشعر . فطفق ينظم الروايات ويمثل فيها حتى آخر ايامه .

قلت لكم ان لوندرا منذ ثلاثماية سنة كانت من بعض الاوجه مثل بيروت . وكان فن التمثيل فيها كما هو اليوم عندنا . وكانت التياترو الخاصة بشكسبير وشركائه شبيهة بهذه. فالحالة الاجتماعية التي الف فيها هـذا العبقري رواياته كانت كحالتنا اليوم دون تصوراته وافكاره ودون المثل الاعلى في الفنون .

فهل كتب الشاعر ما يلائم طبائع قومـه واميالهم في تلك الايام ؟ هل راعى خواطر شعب لوندرا منذ ثلاثماية سنة؟ فانه لو فعل ذلك لما كنا نقرأ رواياته ونمثلها اليوم . بل هو الف هـذه الروايات لكل جيل ولكل زمان . الف رواياته والحقيقة آخذة بضميره . وربة الشعر تملي على فؤاده . والحكمة تنير زوايا قلبه ونفسه . الف رواياته ولسان حاله يقول : ان لم يقدرهـا ابناء اليوم حق قدرها فسيفعل ان شاء الله ابناء المستقبل . وهذه من نبوات الشعراء . فالنابغـة ياسادتي يتقن أي عمل اتاه بشرط ان يكون قلبه مائـلاً الى ذاك العمل . ومن مميزات شكسبير في صعوده من احقر الاشغال الى المهنة التي تتصل بالالهة اسبابهـا انه كان يفرغ قلبه ودماغه في قالب عمله . وان حياة هذا العبقري لشبيهة بتمثال حي لما جاء في رواياته . فانه ارتقى السلم من اوطى الدرجات حتى اعلاها ووقف هنيهة في كل منها ليفكر بالحكمة التي فوقها والحكمة التي تحتها .

ان الفوز المبين اذاً لفي اتقان العمل مهما كان . ان الاتقان

في الفلاحة كان او في النظم او في التمثيل هو اساس كل ما يدوم طويلاً من الصنائع والفنون . ونحن الشرقيين مفتقرون جداً الى الثبات الذي يتغذى به الاتقان . فاننا لا نتقن شيئاً ولا نثبت في شيء . بل ترانا نيأس قبل ان نتمم عملا . ونبغي فوق ذاك الاستحسان والتقريظ . فعسانا اذاً ان نتمثل بشيء من حياة هذا العبقري الانكليزي الذي اتقن عمله سائساً . واتقنه ممثلاً . واتقنه شاعراً .



حول المساواة [1]

سيداتي وسادتي

عندما كتبت هذه الرواية الصغيرة لم يخطر في بالي امر تمثيلها . وقد الفتها لغرضين غرض ادبي وغرض سياسي . فالغرض الادبي ظاهر للألباء من خلال الخيال . والغرض السياسي نقطة محوره . ومهما كان من امر الرواية فما هي الا وقفة امام البـاب الذي لا بد ان يدخله الادباء بعد حين . فقد عفنا الروايات المترجمة التي قلما تنطبق على حالنا وقد حان لنا ان نضع تاريخ الامم الشرقية وبالاخص تاريخنا على المسرح ليقتفي الناس اثار اجدادنا الحسنة ويتحاموا منها السيئة . ومن العجزان نتهافت على موائد الافرنج وعندنا في تواريخنا العربية وفي حياتنـا الاجتماعية من الحوادث والعبر ما كان يكفي (ساردو) و(روستان) و(إبسن) خمسين عامـاً لو تفرغوا لدرسها ووضعها في قالب التمثيل . وما روايتي هذه سوى وقفـة كما قلت امام باب الموضوع . وبما انني اشتغـل اليوم في نظم بعض حوادث تاريخ العرب اتمثل في انكلترا او اميركا اود لو يهتدي بعض اخواني من الادباء الى شيء من هذه الحوادث المهمة فيفرغونها في قالب تمثيلي على طريقـة

(١) القيت اثناء تمثيل رواية السجناء او عبد الحميد في الانيتي للمرة الاولى في المسرح الجديد ببيروت سنة ١٩٠٩

قريبة بقدر الامكان من كمالات هذا الفن .

اما الغاية السياسية من الرواية فلا شك انها ظهرت لاكثر كم وتدبرتموها . وما عبد الحميد فيها سوى واسطة لاظهار الحقيقة المؤلمة التي طالما شغلت المفكرين .

من الالفاظ الساحرة التي تجري على السنة الخطباء في هذه الايام لفظة المساواة . والمساواة ايضاً هي محور الفكرة السياسية في الرواية . ولكن بين ما ارتأيه في هذا الموضوع وما يرتئيه غيري بوناً شاسعاً . فالمساواة لفظة طالما تحمس لها الشعوب في ما مضى من التاريخ ووجدت فيها الامم خلاصها الى حين . وان كان في تاريخ الرومان او الفرنسيس او الاميركان فان هي الا فترة مرت فاضرمت في الشعوب هوساً ابعدهم عن الحقائق الطبيعية والاجتماعية واعادهم اليها بعد حين . والتاريخ شاهد على ما اقول ولكن الوقت لا يسمح الان في استطلاع شواهده فنرى كيف خابت آمال الرومان والفرنسيس والاميركان في عقيدة زال شغفهم بها بعد ان وضعوها في حيز العمل .

على انني اصرح امامكم الآن انني لست من المعتقدين بان الناس ولدوا متساوين كما جاء في دستور الولايات المتحدة . فالناس لا يولدون متساوين لا في القوى العقلية ولا الجسدية ولا الروحية . وهذه حقيقة لا حاجة للاسهاب فيها . وانما الناس متساوون اسماً امام الشرع . اما فعلاً فهم في البلاد التي تدعي

مهد المساواة كاخوانهم في البلاد التي كانت في الماضي قبرها ٠ فالاميركي والعثماني شبيهان من هذا القبيل ٠ وذو النفوذ في الامتين يخنق المساواة بنفوذه ٠ وذو المال بماله ٠ وذو السيادة بسيادته ٠ وذو العقل بعقله ٠ وذو القوة بقوته ٠ ومهما تحمسنا وبالغنا في القول ينبغي ان تكون الحقيقة محجتنا في كل حال ٠

الحقيقة ياسادتي هي ان لا حقيقة للمساواة في البشر اليوم ٠ والذي يمكننا ان نصل اليه بعد طويل الجهد والثبات في مضمار الارتقاء هو ان يعرف كل امرىء مقامه ويجازى كل امرىء على عمله وهذه في نظري هي المساواة الحقيقية. ليجازى كل امرىء على عمله بعدل وانصاف وانا الكفيل بان الناس لا تحلم بعدئذ بالمساواة ٠ اذ ما الفائدة للفاعل ياترى من معرفته انه وسيده متساويان اذا كان سيده لا يجازيه على عمله بعدل وانصاف ! ٠ المساواة الحقيقية اذاً هي ان يجازى كل على عمله ٠ ان يجازى المجرم على جرمه ٠ والفاعل على عرق جبينه ٠ والعالم على علمه ٠ والذكي على ذكائه الذي يظهر في اعماله ٠ ورب الفنون على عرائس صناعته ٠ والشاعر على نفائس شعره ٠ فالمجرم اذا كان من المتشردين او من السلاطين ينبغي ان يكون في نظر الشرع واحداً ٠ وفي نظر القضاة واحداً ٠ وفي نظر السجان واحداً ٠ اي ان الحقيقة تطلب شريعة واحدة ٠ وميزاناً للعدل واحداً ٠ وسجناً واحداً ٠ لمن ساوت بينهم الجرائم والاثام ٠ ولا فرق بين الصعلوك من هذه

الوجهة والامير وبين الفقير والغني · اذكر لما كنت في الولايات المتحدة ان المحكمة العليا حكمت مرة على احد ارباب الاحتكار هناك بالحبس ستة اشهر لخرقه نظام الحكومة المختص بالشركات الاحتكارية · فزج بالسجن كبقية المذنبين ولكنه لم يعش هناك كما عاش اخوانه السجناء · فقد اختصته الحكومة بثلاث غرف فرشها من ماله بالطنافس والرياش · وأذنت لاحد المطاعم ان يقدم له طعامه كل يوم في الاوقات المعينة · وكان اصحابه وعماله يزورونه كما لو كان في بيته او في مكتبه · فما قولكم بهذا العدل في ارض تدعى مهد الحرية والمساواة · افلا ترون ان بين حال عبد الحميد اليوم وحال ملك الاحتكار الاميركي بعض الشبه فالمال الذي تدفعه الامة اليوم لاعاشة السلطان المخلوع هو ما يحق لكل المجرمين في البلاد ان يطالبوها بجزء منه · هذا ما ندعوه المساواة امام الشريعة وهذه هي المحجة التي لم نزل بعيدين عنها · اما المساواة في الهيئة الاجتماعية فالعقدة فيها اشد وامنع · وان عقدة عقدها الله لا يحلها الا هو · ليعمل كل منا عمله باخلاص واتقان · ليعرف كل منا مقامه · ليجازِ كل منا عماله على اعمالهم بعدل وانصاف · لنكن احراراً بمعنى الكلمة الحقيقي فنصبح متساوين فضلا واباءة في عين الله · — قلت في خطابي في زحله كلمة عن الذين يتلبسون بالحرية ويفاخرون الناس بانهم من الاحرار وذكرت على سبيل المجاز بياع البصل او بالحري من لا

يعرف كنه الحريـة والمساواة واصبح يجتمع اليوم والاحرار الحقيقيين في ناد واحد • فقام احد الخطباء يعترض على تحقيري الشعب وعبثي بعقيدة المساواة المقدسة • وهؤلاء الناس يحاولون تعزيز عقيدة لم يعززها الله وما عززتها الطبيعة . فقال كيف لا يحق لبياع البصل مثلاً ان يكون من الاحرار وكيف لا يحق له ان يجتمع وسيده الامير في ناد واحد . لا ياسادتي اذا كان بياع البصل او الامير نفسه يبيع حريته ببصلة فهو من العبيد الذين لا يحررهم الا الله . اذا ظل المرء حرًّا ما دامت حريته لا تضر بمصلحته او بمنصبه او بنفوذه فلا الدستور ولا الثورة ولا المصلحون يستطيعون ان يرفعوا عن نفسه سلاسل العبودية •



الشعب والسياسيون (١)

ايها السادة

ان لهذه المدينة مزيــة طبيعية جميلة ما رأيت مثلها في مدن العالم الكبرى التي زرتها واقمت فيها . وهذه المزية المبهجة تظهر في هــذا الفصل من السنة في اجمل معانيها فتسير مع النسيم في الليل فتنسي السائر حفر الاسواق واوحالها . نعم ان اجمل ما في بيروت جنائنها وان نفحات ازهار الجنائن تسكرني وتحزنني معاً. فقد طالما سألت نفسي وانا سائر ليــلاً في شوارع المدينة — متى يا ترى تنتشر مثل هــذه الروائح الشذية في ادابنا واديانا واخلاقنا ومبادئ زعمائنا ? متى يا ترى تصير ارض سوريا صافية كسمائها ? متى يا ترى تصير قلوب ابناء سوريا نقية كهوائها ? متى يا ترى تصير حكومة هذه البلاد صالحة كانبيائها ? سؤالات يطرحها الرجاء على اليأس بل النور على الظلمة . سؤالات طالما رددتها نفسي فكنت كمن يقلب جذوة في الرماد كلما حركتها صغر حجمها فتمسي اخيراً رماداً

سؤالات اذا سألها علم العالمين بجهلهم يجيب عليها جهل من ادعى العرفان . سؤالات اذا سألتها ازهــار الحب والتساهل والاخاء نبت حولها شوك التعصب والنزاع والخصومات .

(١) من خطبة في الشعب وزعمائه

ولكنني لا ايأس من كل ما هـو جار اليوم . انا لا اتشاءم باخبار الاستانة المكدرة . فان الامة هي كالام ساعة الولادة . الامة الجديدة كالطفل تولد بالعذاب والالام .

اعذروني ايها السادة اذا خالفت هـذه الليلة رأيي في امر الخطابة خلال الفصول . فانني وان قلت بابطـال هذه العادة اعلم جيداً ان ذلك غير ممكن قبل ان يصير عندنا دار خصوصية للاجتماعات العمومية .

واذا كان الخلط بين الخطابة والتمثيل اليوم لازماً فالاشارة الى ان الطلاق كافل سلامة الاثـنين لازمة ايضاً .

وبعد هذا الاعتذار ماذا عساني اقول .

ان قلت كلمة في الحالة الحاضرة اخشى ان تظهروا استحسانكم باطلاق الرصاص فلذلك لا اقولها . ان الصحافيين كثيرون وكلهم في القول يتاجرون . بل كلهم من الاماجـد الكرام كما يقول انطونيوس في جنازة القيصر . والذي يقوله هؤلاء الاحرار الافاضل لا يتجاسر ان يقوله هـذا الفقير . الذي يقوله المسدس والخنجر لايقوله اليوم القلم والمنبر . الذي تقوله الحماسة الوطنية لا ترده دائماً الحكمة . الذي يقوله انصار الامـة لا يقوله انصار الحقيقة . واني اؤكد لكم ايها السادة ان لسان الحال اليوم افصح من لسان الاتحاد . ولسان التقهقر اطول من لسان الترقي . وبلاء بابل في السنتها . ولكن هذه البلبلة لا تدوم . وسينطق غـداً

لسان آخر هو لسان القوة والحكمة فيردد صدى كلماتـه لسان الحال ولسان الاتحاد ولسان الترقي ولسان التقهقر ايضاً . وان غداً لناظره قريب .

واما الان فخدمة للانسانية ارى من الواجب ان نلفت انظار زعماء الفوضيين في اوروبا الى حالتنا المبهجة المفيدة فيبعثوا بوفد من قبلهم الى بيروت ليتعلموا فيها كيف تكون الفوضى . ولا بأس بالفوضى اذا علمتنا شيئاً واحداً وهو انه لا يثبت في العالم والناس الا الانقلاب . لا بأس بالفوضى اذا تعلم الشعب في مدرستها ان يتقي زعماؤه واسياده . فان الزعماء الذين يغرون الشعب اليوم على الصحافة حباً بالامة يغرونه غداً على الامة حباً بالصحافة . عفواً سادتي . قد جاملت من حيث لا اقصد المجاملة فان الزعماء السياسيين يثيرون خواطر الشعب لا حباً بالصحافة ولا حباً بالامة بل حباً بانفسهم الكريمة وبمطامعهم السياسية الشريفة . فاتق ايها الشعب الزعماء ولا تكون في ايديهم آلة صماء . واتقوا ايها الزعماء الشعب فانكم اذا اغريتموه اليوم على احد زملائكم يقوم غداً من يغريه عليكم . لا يثبت الا الانقلاب . اذكروا هذا ايها الثابتون في التقلب .....

وقد قيل ان صوت الله في صوت الجماعات . وكم هو ياترى عدد العثمانيين الذين لا يقفون مع الواقف ولا يتزلفون الى القوي . فالشعب اليوم واقف . الشعب اليوم قوي . ولكن الحق يقف

فوق كل واقف . الحق اقوى من كل قوة بشرية .

فاذا قال السياسيون ان صوت الله في صوت الشعب يقولون ذلك يوم يكون الشعب خادماً مآربهم السياسية . ويوم ينقلب الشعب تنقلب ولا شك الآيــة . يوم تصرخ الجماعات فلتسقط الصحافة الحرة تقول الحكومة المسئولة ان هذا لصوت الله . ولا تكاد تنتهي من تهليلها حتى تصرخ الجماعات فلتسقط الحكومة ! فيقول اذ ذاك الحكام انه لصوت ابليس . والحقيقة ايها السادة ان ابليس بريء من هذا الشعب وان الله بعيد عنه . الحق يقال ان صوت الشعب هــو صوت ابي براقش لا صوت ابليس ولا صوت الله . الحق يقــال ان ابا براقش هو معبود الشعب ومعبود السياسيين .

تبارك الشعب وتباركت صبغاته السياسية . تبارك السياسيون وتباركت نزواتهم الوطنية .



في وصف بيروت

ايها البيروتيون

اقمت في هذه البلاد بلادنا ست سنوات ولم استطع قبل الآن ان اقول في بيروت كلمة حق يرضاها قلب شغف بحب بلاده ولا ينكرها عقل شغف بحب الحقيقة . نظرت الى هذه المدينة بعين رأت مدن اوروبا واميركا فاستصغرتها وندبت حظها ثم نظرت اليها بعين شاهدت غيرها من مدن سوريا فاحببتها واكبرت شأنها . وانا الان ناظر اليها بالعينين فاصفها وانصفها . بيروت ام البلاد السورية وأمة البلاد السورية . اميرة المدن الاسيوية واجيرة المدن الاسيوية . بيروت حسنة من حسنات التمدن وآفة من آفاته . بيروت لؤلؤة شرقية في صيغة من النحاس غربية . هي خلخال في رجل سلطانة المشرق عند الصباح . واسوار في معصم ربة المغرب عند الغروب . هي درة في اوحال تئن فوقها الكهرباء . هي مرجانة على ساحل اختلط تبره برماله ولجينه باوحاله . ساحل النغولة مهد ام المدن السورية وعرشها . فم الاتون بيروت . وافق النور بيروت . ومطلع الظلمة بيروت . عروس الحرية هي وعجوز الحرية . يوماً تتهادى تحت علم الوطن عفة وكبراً ويوماً تتوكأ على عصاها كيداً ومكراً . يوماً تلبس الرعاة العتاة اكليلاً من الازهار ويوماً تقبل منهم اكليلاً من

الشوك . تصعر يوماً خدها للظالم وامام سدته تعفر يوماً وجهها . بيروت منبر الدستور ومشنقته . بيروت حسناء النظام وبيروت صخابة الفوضى .

مدينة المدن السورية بيروت . منبت الياسمين والقلام . مغرس الورد والشوكران . القراص فيها يرفع رأسه عزة تحت ازاهر الليمون . والعليق يسرح ويمرح في ظلال النخيل . مدينة الدماء مدينة المدن . مدينة الخلسة والرجاسة . اخت اورشليم . روحها تئن في الازقة . نفسها تحشرج في المجاري . قلبها يغرد في البساتين . عينها تدمع في دوائر الحكومة . جسمها يذوب في الموبقات . وعقلها يُدق على سندان التفريق في المدارس . بيروت احدى وصيفات باريس . هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضيء المشرق وتنعكس فيه ايضاً ظلمة الغرب فتزيد الشرق ظلاماً . بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات . هي حقل خصب التربة تزرع فيه اوروبا قمحها وزوءانها وورودها وقُلاَّمها . ومع ذلك نراها سائرة الى الامام ساهرة صابرة . اذا اقبلت سوريا فبيروت امامها وان ادبرت فبيروت وراءها . اذا كانت اليوم كاذار من السنة تتراوح في رعدها وبرقها بين الظلمة والنور غداً تصير كايار بل كتموز . كايار بازهارها . كتموز بثمارها . اذا كانت اليوم اسيرة شياطين التفريق تصبح غداً ربة الالفة والاخاء . اذا كانت اليوم عرش التعصب الديني فهي غداً قبره .

مدينة المدن السورية بيروت واثمها مثل مجدها كلاهما عظيم .
اذا بكت هاج بكاؤها بكاء الامة . اذا غردت رددت انغامها بلابل حلب وشحارير الشام وحساسين لبنان وحمام الجليل . اذا وردت بحيرة الاصلاح « ورد الفرات زئيرها والنيلا » . واذا افسدت افسدت بناتها في السواحل وعلى شواطي العاصي والاولي والاردن وبردى . كلمة باطل تنطق بها بيروت تمسي حجة في دمشق . كلمة حق تصدع بها بيروت تروي غليل القرى الظمآنة وتبعث في مدن السواحل والسهول روح الجهاد .

ام المدن السورية هي وعجوز المدن السورية . تعلم بناتها الفضيلة يوماً ويوماً تعلمهن الرذيلة . تحمل اليهن نورًا وتحمل اليهن سماً . اثمها مثل مجدها كلاهما عظيم . واعظم من الاثنين واجب فرضه الله على الامهات . احسني القدوة يابيروت يحسن بناتك الاقتداء . في المروج والجبال وفي السواحل والسهول بناتك يستقين من ينابيع علمك وادبك . من مدارسك من صحافتك من منابرك من مطابعك . فصفي مياهاً تسقينها بناتك . اخفري السبل . صوني المناهل . تعهدي المسارب . اقطعي يد كل اثيم يشتغل اليوم في تعكيرها او تخريبها او تسميمها . اقطعي الايادي التي تحمل اليها سرًا فضول الاديان واوحال التعصب واوساخ سخافات الادب والسياسة . طهري ينابيعك . ارحمي بنيك وبناتك .

أشهد ان لا نور ولا دخان ولا وحول في سوريا اليوم غير ما كان مصدره بيروت . وأشهد ان بيروت وجه سوريا وان الهوتنتوتي في هذا الزمان يغسل وجهه . بيروت قلب سوريا . والعلم يقضي بان يكون العقل كالقلب والجسم نظيفاً نقياً ولكن المدينة التي تدعى درة في تاج آل عثمان هي درة في اوحال وغبار تئن فوقها وتحتها الكهرباء وتبعبس حولها حباحب الادباء .

اوحال واقذار وغبار في اسواق المدينة . وفي آدابها وفي سياستها وفي اديانها . ودرة العلم ودرة الدين ودرة تاج آل عثمان في هذه الاوحال والاقذار غائصات ضائعات . وماذا يزيل الاوحال والاقذار والغبار . لا الصحافة ولا قرض البلدية ولا قصائد الشعراء ولا كلماتي تزيلها . هذه الاقذار من فضول الاعصر والاجيال ولا يزيلها ابداً سرمداً غير التربية الحقة والتهذيب الصحيح . تربية اساسها الشجاعة والحمية والصدق والنظافة . وتهذيب اساسه النزاهة والامانة والاقدام وحب العدل والوطن . متى تأصلت هذه الفضائل في الرعاة وفي الرعية . وفي السائدين والمسودين . تصطلح جادات المدينة وتستقيم جادات الادب والدين والسياسة . اصلحوا الحياة تصلحوا الحكومة . اصلحوا الحياة تصلحوا المدينة .



في لبنان

اخواني . ابناء وطني .

اذا كان في حضوري حفلة هذه الجمعية ما يسركم وفي كلماتي ما يفيدكم فالفضل في ذلك لرسول الجمعية اليَّ . جاءني هذا الرسول الاسبوع الماضي فذكرني بعد ان قص قصته بمخبري الجرائد الاميركية . باولئك الشبان الاقوياء الذين يتسقطون حتى من السماء الاخبار . وينالون بغياتهم بالجد والثبات ولو حالت دونها الاقدار . ورسول الجمعية نال بغيته مني بالجد والثبات . طلبني في محالّ عديدة بالمدينة فما وجدني . سأل عني بعض الاصحاب فثبطوا من همته . علم اني ساخطب في بيروت خطبتي الاخيرة واتأهب للسفر وما كان ذلك ليوقفه عن سعيه . عض على نواجذه وراح وجاء باحثاً طالباً حتى لقيني فحاصرني واستولى عليَّ . اعجبني من الشاب نشاطه وجده وثباته . فاحببت ان انوه بها في هذا المقام . وحبذا هذه المزايا الحميدة في شباننا بل في كهولنا وفي نسائنا . حبذا العزم في الاعمال . والثبات في الاعمال . والاخلاص في الاعمال . فلا التربية في بيوتنا نحن السوريين ولا التهذيب في مدارسنا يغرس فينا مثل هذه الاخلاق

---

(١) خطبة القيت في جمعية الاجتهاد الروحي في برمانا لبنان في ١٤ ايار سنة ١٩١٠

الطيبة . مثل هذا العزم والجد والاقدام . الشاب الذي نوهت به من متخرجي الكلية والمزايا التي اعجب بها انما هي من محاسن الاخلاق الاميركية . وحبذا لو تخلقنا بمثل هذه الاخلاق فنأخذ عن اصحابنا الاميركان والانكليز اماثيل العزم والجد والاقدام ونترك لهم عبادة المال والتكالب في سبيل الاثراء .

فكم من خوار هلوع اذا قامت في وجهه عقبة واحدة يعرض عن غرضه ويعود الى خموله خائباً . وكم من رسول لفساد في خلقه وضعف في عزيمته يخدع مرسله ويخونه . وكم من مأمور يركب الى غايته مطية الغش والتلبيس ويطلي عُقَد الامور بالاكاذيب ويدور حول العقبات مثل كديش الناعورة فلا هو يذلل العقبات ولا هي تعززه . الاخلاص في الاعمال . والامانة في الاعمال . والجد والثبات في الاعمال . هذا ما انصح به لاخواني ابناء وطني .

فالجد يدني كل امر شاسع والجد يفتح كل باب مغلقِ

وان من يمد يده الى السماء راغباً عازماً جاداً متشوقاً لتدنو منه كواكب السماء واقمارها .

ولكن الطبيعة تنفر من الالحاح ونواميسها تكره العجلة . وقلما نرى نحن السوريين ما لا يعاكس الطبيعة ونظام الاشياء . اذا شاقنا امر طلبناه كالاطفال ضاجين ملحين صارخين صاخبين . مئات السنين نريد ان يحشرها الله من اجلنا في مدة صغيرة . نريد ان ينير من اجلنا الشمس في الليل والقمر في النهار . نريد

ان يصلح شؤوننا ونحن اما نائمون واما صاخبون • ولا الصخب وايم الله ولا النوم • لا العويـل والفوضى ولا التلبط والقنوط تصلح الشؤون •

اكعكة تريد يابني • اصبر تنلها • واما هذا التلبط منك فلا يفيد • وهذا الصراخ لا ينفعك • بمثل هذا الكلام تخاطب الام ابنها اللجوج والامة بنيها • نريد في لبنان تهذيباً وحرية وعمراناً . نريد في لبنان اصلاحاً • وأيم الله لا نريد في لبنان الا الوظائف • اقول وحق ما اقول ان بـلاء لبنان وفساد حاله لمن مصلحيه • مصيبـة الجبل اولئك الذين يضربون على وتر الاصلاح حباً بالاشتهار • او خدمة لمآرب احد المفسدين الكبار • اولئك الذين يصطادون بشبكة التمويه والتغرير الدينار • بليـة لبنان اولئك الذين يزحفون على بيت الدين باسم الدستور فينصبون في باب السراي مشنقـة الدستور . اولئك الذين يصطبغون بصبغة الاحرار واذ يتبوؤن كراسي السيادة يولون للحريـة الادبار . اولئك الذين يصطبغون بصبغة الماسون يوماً ويوماً بصبغة المارونية فلا ماسونيين يعرفون ولا بكر كيين . مصيبة هذا الجبل العزيز في امثال اولئك البنائين المحترمين الذين يناهضون الاكليروس يوماً ويوماً يتزلفون اليه ليسلبوه النفوذ والسيادة . كنا في الماضي نقول ان بلاءنا من الاكليروس . واما اليوم فياما احيلى الاكليروس الى جانب هؤلاء الذوات المصلحين . مسكين

الا كايروس اللبناني ! صرخة واحدة اوقفته . ضربة واحدة اقعدته .
وكأني بالبنائين والمصلحين يصرخون اليوم في وجهه قائلين :
اشلح تربح . هذي هي حال الا كايروس اليوم وحال المصلحين .

بليتنا يا اسيادي من هذه الاحزاب . من هؤلاء الزعماء والسياسيين العتق منهم والجدد . وما اكثر المصلحين فينا وما اقل الصالحين . ما اكثر الواعظين وما اقل المتعظين . عودوا الى بيوتكم ايها الناس فالزموها . عودوا الى انفسكم فاصلحوها . افسدتم باصلاحكم البلاد . اهلكتم بسياستكم الناس . اقول ولا اخشى لومة لائم ان كل ساسة لبنان الموقرين سواءٌ في الضلال والفساد . وما اشرنا مرة الى احد معجبين ممن اشتهروا بغير الضلال والفساد وكان عند رجائنا فيه . قلنا في هذا الرئيس قولاً جميلاً كذبه باعماله . مدحنا الزعماء الوطنيين فحبقوا في الطحين . ما كدنا نقول في هذا النائب ما شاء الله حتى اضطررنا ان نقول انا لله . كلهم في الفساد والضلال سواء . عودوا الى بيوتكم ايها الزعماء الاعزاء . الى حقولكم . الى املاككم . فتعهدوها بالتربية . اصلحوها اصلحكم الله . بارت ارض لبنان من اشتغال اصحابها عنها بالسياسة . غاضت مياه لبنان من اهمال الغابات فيه والاحراج . وسيذهب لبنان ضحية اصلاح المصلحين الذين يهملون بيوتهم وعيالهم واملاكهم ليصلحوا حكومة لبنان .

اقول وحق ما اقول لو سكت الزعماء والمصلحون العتق

منهم والجدد وعادوا الى بيوتهم يحترفون لهم حرفة شريفة لاصطلحت عاجلاً شؤون لبنان السياسية . واما شؤونه الاجتماعية والعمرانية فلا يصلحها غير المدارس الراقية والتربية الحقيقية . لا يصلح حالنا ادبياً ودينياً غير المدارس الاعدادية العلمانية الوطنية والتربية الاميركية الحقيقية . اما الاصلاح السياسي فلا ينفع كثيراً بل لا ينفع قطعاً في مثل احوالنا اليوم . وهاك ما قاله طومس كرليل في هذا الصدد . انا قارئ ما عربته من سديد حكمة هذا الفيلسوف العظيم .

« قد قيل مراراً وينبغي ان يقال ايضاً تكراراً ان كل اصلاح غير الاصلاح الادبي لا يجدي نفعاً . فالاصلاح السياسي مع شدة الحاجة اليه يحصر فعله في استئصال الاعشاب البرية كالشوكران القبيح السام والنباتات المشوكة التي يكثر نموها وتقل فائدتها ولكن الارض وقد اصبحت بعد ذلك بوراً تقبل البذور الكريمة كما تقبل ما قد يكون اخبث واضر مما استئصل منها . اما الاصلاح الادبي فهل يتحقق يا ترى رجاؤنا فيه ان لم يزدد يوماً فيوماً عدد الرجال الصالحين فينا . اولئك الذين ترسلهم العناية الكريمة ليبثوا روح الصلاح في الناس ليزرعوه كما تزرع الشجرة الحية بذورها . فالرجل الصالح انما هو قوة سريعة حية مثمرة وكذلك في كل زمان ومكان يكون . ونفوذه اذا تدبرناه لا يقاس لان اعماله لا تموت . هي ابدية لانها بنت الابدية . وقد تتحول فتنمو وتنتشر

في اشكال جديدة ولكن جوهرها الحي المحيي هو واحد . فيا ايها الصارخ من خبث الزمان ولؤمه القائل ان ديوجن في يومنا يحتاج الى مصباحين في رابعة النهار اعلم ان لا سلطة لك على الزمان . وليس لك ان تصلح البشر — ان تنقذ عالماً منغمساً في الغش والفجور والنفاق . وانما كتب لك ان تصلح رجلاً واحداً فيه واعطيت لذلك قوة عظيمة مطلقة فانقذ هذا الرجل . اصلحه . قوّم أوده . ان في اهتمامك بنفسك شيئاً بل اشياء تذكر . وحياتك واعمالك لا تكون بعدئذ باطلة . »

وكلنا هذا الرجل . وكلنا نستطيع ان نصلحه اذا سعينا وكنا ثابتين في سعينا صادقين . اما الاصلاح السياسي فهو ينقي الارض ويخصبها فقط . والاصلاح الادبي الذاتي يعطينا بذوراً صالحة نزرع منها هذه الارض المنتخبة الطيبة . واما اذا اخصبناها ونقيناها وكانت بذورنا رديئة فاسدة يجيء كل اصلاح سياسي شراً من الآخر . وبأسف اخبركم ان ما في جراب بذارنا اليوم غير بذور الحنظل والقرقفان والعوسج والقراص . فاذا كانت لنا غيرة على بلادنا وكان في قلبنا حب لارضنا حقيقي نأبى ان نتعبها ونهلكها بالاصلاحات السياسية العقيمة . لنسع في تنقية البذور قبل تنقية الارض . اطرحوا الى النار جراب السياسة وما فيه غير آسفين وخذوا لكم جراباً جديداً تملاءونه من بذور النفس المصلحة الجديدة . فقد اعطي كل منا كما قال كرليل قوة عظيمة مطلقة

ليصلح نفسه وكل منا يستطيع الى ذلك سبيلاً اذا سعى قليلاً ٠

ونصيحتي لاخواني اللبنانيين لابناء وطني المحبوب ان يبتعدوا عن السياسة ويقتربوا من الحقول ٠ ان فلاحاً في كرمه وراء محراثه لاشرف من كثيرين من ذوات لبنان ٠ ان صانعاً في معمله لاطهر ذيلاً وانزه نفساً من ساسة لبنان ٠ ان حائكاً في نوله لاسلم قلباً من مصلحي لبنان ٠ — جبالنا المقدسة ! أيهجر بنوك حقول السكينة فيك ليتلوثوا باوساخ السياسة واوحالها ؟ ايهملون ارضك فتصير بوراً وغاباتك فتصير صخوراً حباً بمنصب في الحكومة يذل النفس ويفسد الحياة ؟ الى الحقول ايها السياسيون الى الحقول ٠ بارت اراضي جبالنا من الاهمال ٠ تصخرت غابات جبالنا من الاهمال ٠ غاضت مياه جبالنا من الاهمال ٠ اتشقون في السياسة اخواني والمحراث ينشدكم نشيد الهناء والحبور ؟ اتتمرغون في اوحال الوظائف والارض تحن اليكم حنين الام الى اولادها ؟ اتستذلون وتستضعفون وتستعبدون في دوائر السياسة والحقول تدعوكم اليها لتلبسكم تاج الاستقلال ؟ لتعيد اليكم شرف الرجال ٠ لتمتعكم بحرية الفكر والعمل والمقال ؟ الى الحقول اخواني ٠ الى الحقول ٠ ليرعَ كل منا خويصة نفسه ليشتغل كل منا عن اصلاح الناس باصلاح شؤونه ٠ ليتعهد ارضه واملاكه بالحراثة والتربية فيصطلح عندئذ لبنان ٠ ويصطلح شعب لبنان ٠ وتصطلح حكومة لبنان ٠

التساهل الديني

خطبة

ألقيت في احتفال جمعية الشبان المارونيين

ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠

في نيويُرك



وطبعت اولاً هناك

تنبيه

هذه اول خطبة القيتها في لغتي وقــد انتشرت في سوريا ومصر واميركا وقرظتها الجرائد والمجلات هنا وهنالك · لذلك احببت ان ابقي عبارتها على ما كانت عليه في الطبعة الاولى ·

مقدمة الطبعة الاولى

قد طبعت هــذه الخطبة لاعتقادي اننا بحاجة كلية الى التساهــل الديني فأملي ان تصادف من المتساهلين استحساناً ومن المتعصبين قبولاً تكون نتيجته الارتياح والاستحسان على ما ارجو فيزول اذ ذاك التعصب ويسود التساهل وتبرز بعــد ذلك امتنا السورية الى عالم الوجود قائمــة على صخرة لا تقوى عليها نيران الجحيم ·

نيويرك في الشهر الخامس من سنة ١٩٠١

مقدمة الطبعة الثانية

وهذه عشر سنوات مضت والتساهل الديني لا يزال من الادوية الناجعة . وفي ذلك دليل على ان داء التعصب الدفين لا يزال متأصلاً في الصدور . وقد قال لي احد كبار الاتحاديين ان الجمعية تود لو انتشرت هذه الخطبة في كل اقطار المملكة . فلتتكرم الجمعية اذاً وتترجمها الى التركية . ابدلوا « الامة السورية » في الخطبة بالامة العثمانية ولا تخشوا اللوم والتثريب . فان عناصر هذه الدولة كلها كالعنصر الذي عالجته . وان ما نئن منه نحن المسيحيين لاشد وطأة عند اخواننا المسلمين . أفيسقمنا التعصب ويجهز علينا التمويه ؟ اتقوا الله ايها الناس . فقد صاح بكم الاحرار الاصفياء عودوا الى كتبكم ظناً منهم انكم تعودون الى الحسن السمح السامي من اياتها . فخاب ظنهم . لذلك اقول ارفعوا اعلام الوطن ولا تعودوا الى كتبكم في غير المعابد لانكم تعودتم ان تسرعوا الى ما خط فيها من آيات فتفسرونها بما لا يقتضيه حالنا اليوم بل لا يجيزه . عودوا اخواني الى ضميركم . الى وجدانكم . الى معقولكم . الى حكمة موروثة فيكم . وساعدوا هذه الدولة الجديدة فتساعدكم . ساعدوها ايها الرؤساء والاسياد في بث روح التساهل الديني والجنسي في الناس . وسيف والله يرفع علي شر من سيف ارفعه على اخوان لي في الوطنية . وشر من الاثنين ايها العثمانيون سيف يرفع علينا اجمعين .

بيروت في ٦ نيسان سنة ١٩١٠

مقدمة الطبعة الثالثة

وَشَرٌّ من الاثنين سيف يرفع علينا اجمعين

(من مقدمة الطبعة الثانية)

والسيف اليوم وأسفاه ! علينا اجمعين · الا ان صاحب السيف غير ذاك الذي حاول منذ خمس عشرة سنة تتركينا واستعبادنا · صاحب السيف مهما كان من امره اليوم · وكيل مسؤول — مسؤول امام شرف في تقاليده · ومجد في تاريخه · ونبوغ في آدابه · وضمير في عهوده · ومع ذلك فهو لا يساعدنا اذا كنا لا نساعد انفسنا · او لا نحسن التعاون ·

والتعاون لا يكون بغير سيف بتار نسله على التعصب الخبيث الذميم · التعصب الفظيع الاثيم · بل على التعصبات كلها جمعاء — على التعصب الديني الكافر · والتعصب المذهبي الفاجر · والتعصب الجنسي الخؤون · والتعصب الطائفي الملعون · وان سيفا على هذه المآثم كلها لهو آية الحق · والعدل · والاخاء ·

اقول · وحقاً ما اقول · ان الخلاص في يدنا · ان الخلاص في التساهل الديني · وفي الاتحاد الوطني المبني على الاشتراك بالمصلحة والاشتراك بالرذية اقول · وحقاً ما اقول · ان في اتحادنا صالح راعي الانتداب وصالحنا · اجل ان اتحادنا الوطني المجرد عن كل صبغة مذهبية او طائفية ليحمل فرنسا على احترامنا واحترام مطالبنا · وتفيد اذ ذاك وتستفيد وتؤيد فوق ذلك تلك المبادىء السياسية السامية التي رفعتها يوماً لى امم لارض جمعاء ·

الفريكة في ٣١ ايار سنة ٩٢٣

امين الريحاني

التساهل الديني

ايها السيدات والسادة

لما علم بعض اصدقائي باني انتقيت موضوعاً دينياً القيه على مسامعكم في هذه الليلة الحافلة انتشر الخبر في جاليتنا السورية واخذ كل رجل يبني عليه العلالي والقصور ويستخرج النتائج ويقدر العواقب ويفسر الموضوع بحسب مبلغ ذوقه وادراكه وهواه وقد اتفق هؤلاء المفسرون في شيء واحد وهو اني سأتعرض للدين تعرضاً خبيثاً وهم ينوون توقيفي عن الخطابة لانهم للآن لم يألفوا حرية القول والانتقاد فعسى ان يصادفوا الفشل وخيبة الامل لانهم حكموا علي قبل ان يسمعوا كلامي ويتدبروا براهيني وهذا شيء يناقض الشريعة والعدل ويأباه الراي المستقيم والذوق السليم فالقاضي الذي يحكم على مجرم بالقتل قبل ان يسمع دفاعه يكون ظالماً مجرماً جاهلاً . فلا تحكموا قبل ان تسمعوا ولا تقصدوا الشر قبل ان تتبينوا شراً اكبر يستوجبه . وقد يظن البعض ان البحث في الامور الدينية متعلق برؤساء الاديان فقط ومحرم على سواهم وهذا عين الضلال والغلط فالمرء لا يرى مساوئه ولا ينتقد الحرفة التي يتوقف عليها معاشه . ورؤساء الاديان لا يتكلمون عن الدين شيئاً مشيناً ومضراً به على مسامع الشعب ولو لم يكن منافياً العدل والاصلاح بل كل مباحثهم الفلسفية

وكل اقوالهم العلمية هي مستنتجة من مقدمة تسبق كل بحث وكل تنقيب يطبعونها في جنانهم قبل ان يقدموا على الكتابة والجدال وهي هـذه . الدين تأييده واجب وتعزيزه اوجب واذا افسده الزمان ولوى فيه الالسنة بعض رؤساء الاديان فلا يعلن الفساد للشعب فاذا كانت المقدمة على هذا المنوال فهل يرجى منهم انتقاد جهري يكشف للعلمانيين ما لا يظنونه موجوداً . ان ذلك لا يكون فالرؤساء لا يرجى منهم اصلاح جهاري في الدين اذ ان ذلك يضر بمصالحهم ويضعف سلطتهم ويسقط سيادتهم . واذا سألتموني لماذا تبحث وتتكلم في الدين وانت لست من رجاله فاجيبكم كما اجاب روسو الفيلسوف الافرنسي الشهير لما سئل عن تعرضه للبحث في السياسة وهو ليس اميراً ولا حاكماً قال : انا لست اميراً ولا حاكماً ولكنني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان بكتابة ما ينبغي ان افعل بل كنت افعله والزم السكوت . وانا لست قسيساً او مطراناً ومن اجل هذا اخطب بموضوع ديني فلو كنت قسيساً او مطراناً لاصلحت وحسنت واستغنيت عن الخطابة ولزمت السكوت فالبحث في اي موضوع كان محرم على الحيوانات العجم فقط اما الناطقة العاقلة فمن حقوقها ان تخوض عباب اي موضوع شاءت

ولكن الذي اوقعني في مثل بحر من الاضطراب هو الطلب الذي طلبته مني عمدة هذه الجمعية (جمعية الشبان المارونيين)

كي اعدل عن الخطابة بهذا الموضوع تجنباً للشر وهرباً من العواقب الوخيمة حسب زعمهم ولعمري لا ينجم عن البحث والتفتيش المصحوبين بالمعرفـة والحكمة الا كل شيء مستحسن ومفيد • البحث ام الحقيقة • ماذا افعل اذن • أأرمي نفسي في بحر البحث والتنقيب ام اسلم تسليماً غير شرطي دون ان انبس ببنت شفـة • من وجه لا اريد ان اخون ضميري واعوّد نفسي التردد فالشاعر يقول :

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً

فـان فساد الرأي ان تـترددا

ومن وجه آخر اود لو راعيت خواطر اعضاء الجمعية التي انا عضو منها واجبت سؤلهم • فان تكلمت استاءوا وان لم اتكلم استاءت الحقيقـة وهـذه هي الورطة التي وقع بها ذاك الخطيب المفوه اسكندر افندي العازار لما تكلم عن « الجرائد وجرائدنا » في مدينة بيروت فاخذ في البدء يسرد تاريخ الجرائد مبتدئاً بالصين ومنتهياً في اوروبا ووقف يتبصر لما اتصل به البحث الى جرائدنا وحالتها في تلك المدينة • والموقف يستوجب كثرة التبصر اذ كانت تلكم القاعة غاصة برجال الحكومة واصحاب الجرائد ونخبة الجواسيس وكلهم كانوا واقفين للخطيب بالمرصاد يتوقعون منـه كلمة واحدة ضد الجرائد او المكتوبجي ليشوا به ويسعوا بتوقيفه وحبسه فبعد ان تبصر قليلاً قال : جرائدنا ••• احسن صبغـة

للشعر عند عيد عون •• جرائدنا ••• احسن دواء لوجع الرأس عند ابي نحول . جرائدنا ... جرائدنا ••• فنهض احد اصحاب الجرائد في ذاك الثغر وقال له « ما معناك لم لا تتكلم » فاسكته الخطيب اذ قال :

« الله يضيق على من يضيق »

اما نحن فلسنا في بيروت الآن ولسنا محاطين بالوالي والمكتوبجي والجواسيس ولا توجد فوق رؤوسنا ايدي رجال حكومة ظالمة جائرة مستبدة من شأنها الضغط على العقول وتوقيف كل من نطق بالحقيقة وصرح عن افكاره بحرية واخلاص . نحن في بلاد طرحت فنمت في ربوعها بزور الحرية منذ نشأتها نحن في جمهورية عظيمة يحق لكل من وطئ اراضيها المباركة ان يتكلم بحرية تامة بشرط ان لا يمس حرية غيره . وهذه الحكومة العادلة قد كفلت لشعبها الحرية بجميع انواعها كحرية الاديان وحرية الصحافة وحرية الخطابة وحرية التعليم وحرية العمل ولعمر الحق هذا اكبر باعث لتقدمها السريع ونشأتها الغريبة • فما لنا اذا ومراعاة الخواطر عند البحث عما يعود باكبر الفوائد على السوريين في بلادهم وفي المهاجر ••• موضوعي التساهل الديني أتريدون ان اتكلم (فجاء الجواب من الجمهور اخطب ! تكلم !)

أأتكلم ؟

تكلم • تكلم تكلم !

سأتكلم اذًا وعلى الله الاتكال ٠

موضوعيَ في هـذه الليلة الحافلة متشعب الاطراف جليل الشأن جزيل الفوائد ذو اهمية تأثيرهـا في المجتمع الانساني لا يقاس ولا يحـد ٠ هو الموضوع الذي انقسمت عليه الرجال في الاعصار الغابرة المتوسطة حين كان يدافع عنه كل المدافعة العلماء والفلاسفة والاحرار ومحبو البشر الابرار ويعارضهم كل المعارضة الرؤساء والامراء والملوك وكل من فضل قطعـة معدن تدعى خطأ تاجاً على ذلك الشيء الخفي السري الالهي الذي يسمى ضميرًا

(تعريف التساهل)

التساهل هو التسامح بوجود ما لا يستصوب بتمامه[1] وهذا

(١) كل عقيدة وكل مذهب وكل تعليم لا تعتبر صحته عند جميع الناس والشعوب فهو غير مستصوب بتمامه وان كان صواباً ٠ الديانة المسيحية مثلاً هي غير مستصوبة بتمامها ليس عند الشعوب الغير المسيحيين فقط بل عند المسيحيين انفسهم فالمسيحي البروتستاني لايستصوب المذهب الكاثوليكي بتمامه والعكس بالعكس وذات الحالة تعتور الشيع البروتستانية العديدة ـ والدين الاسلامي هو غير مستصوب بتمامه عند كل الناس حتى عند المسلمين نفوسهم فان منهم الشيعيين والسنيين والصوفيين والمعتزلة والمجسمين وغيرهم من الشيع المتعددة ٠ وكل من هذه الشيع لا تستصوب تعاليم الاخرى بتمامها ٠ ولا ستصوب بتمامه الا الحقائق الراهنسة التي لا ينكر صحتها احد على الارض وهي ما كانت من طوق ادراك العقل لهـا فناموس الجاذبية مثلًا هو مستصوب بتمامه عند كل من عرفه واثنان واثنان تساوي اربعة لا ينكر احد صحتها ولا يوجد رجل على البسيطة له مسكة من العقل يقول لك ٢و٢ = ٣ ولو قلنا : الخطان المتساويان لا يتحدان مها ادمت مدهما فهو تعليم يقر بصحته كل من درس الهندسة او تروّى قليلًا في القضية . هذي هي الحقائق الراهنة ـ حقائق رياضية قاطعة لا ينكرها احد وهي تستصوب بتمامها . والشيء الذي يستصوب بتمامه لا لزوم للتساهل به لان كل الناس تتآلف وتتفق بخصوصه .

تحديد كلي اما الجزئي فهو اجازة العقائد الدينية والطقوس الطائفية التي تخالف الطقوس والعقائد المختصة بالدولة • وهذا تحديد لا يطابق حالتنا ولا يوافق الظروف الحاضرة • فاليكم اذا بتحديد يأتي بالمراد : التساهل الديني هو الاعتبار والاحترام الواجب علينا اظهارهما نحو المذاهب المتمسك بها ابناء جنسنا ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا وتقاليدنا وطقوسنا على خط مستقيم

يجب علينا ان لا نمكن ما لا يستصوب بتمامه من ان يفرق بيننا ويشتت شملنا ويقسمنا على انفسنا

التساهل لا يكون في الامور الدينية فقط بل في كل المسائل التي تطرأ على عقول البشر ويعمل بها الكبار والصغار عدا ما يستصوب بتمامه . ولا نستطيع ان ندخل هذا الباب دون ان نطرق باباً اخر . فالتساهل نجم عن التعصب وهاتان الكلمتان ضدان وهما ثانوية من ثانويات الطبيعة كالنور والظلمة والفضيلة والرذيله والخير والشر والعدل والظلم . فلولا ذلك لما كان هذا . لولا الاول لما كان الثاني . فالتعصب اذاً ولد التساهل والتساهل ولد السلام والسلام ولد النجاح والنجاح ولد السعادة مثلما ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا واخوته . فالسلسلة واحدة لكن الترقي يأخذ مجراه حسب سنة النشوء والارتقاء والتعصب يسبق في كل الاحوال ليستوجب التساهل لان القضيب المستقيم يكون تقويمه اعوجاجاً .

ولكي يكون الشيء صريحاً والبرهان جلياً اجعل لكم تشبيهاً ثانياً التساهل هو الابن والتعصب هو الاب ولحسن الطالع لم يوجد في العائلة البشرية برمتها اب وابن لم يتفقا ويتواليا في زمانهما قط الا هذين الاثنين فالاب التعصب يكره الابن التساهل والابن لا يستطيع ان ينظر الاب فاستعرت بينهما نيران الفتن وحمي وطيس القتال في الاجيال المتوسطة التي يدعوها المؤرخون الاجيال المظلمة وكان الفوز احياناً لهذا واحياناً لذاك حتى دخل المتحاربون القرن التاسع عشر فاخذ الابن يفوز على الاب . اخذ التساهل ينتصر على التعصب واخيراً شق قلبه بخنجر العدل وفراه بسيف الرحمة . مات التعصب ولكن واأسفاه كان موته الى حين اي ان روحه عند خروجها من جسمه الديني تقنصت بقوتها الاصلية بالجسم السياسي . خرجت من الجسم البشري ودخلت الجسم الحيواني عوضاً عن التعصب الديني الذي سود صفحات التاريخ في الاجيال الغابرة قد ابتلينا بايامنا هذه بتعصب سياسي او دولي اذا شئتم لم نرَ له مثيلاً في تاريخ العالم باسره . فما هذه الحروب التي تشهرها الدول الاوروبية على الشعوب الحقيرة والقبائل الضعيفة الصغيرة الا نتيجة التعصب الدولي نتيجة الفكر الفاسد الذي تتمسك به الدول وتعمل بموجبه فانكلترا تعتقد نفسها اصلح من فرنسا وفرنسا ارفع واعظم من جرمانيا وجرمانيا اقوى واحسن من الاثنين الخ واذا راقبنا حركات الدول

واطلعنا على اسرارها ودرسنا سياستها وكشفنا الحجاب عن خفاياها وتأملنا الحروب العديدة التي تهدم هيكل المجتمع الانساني وقفنا حيارى نسأل انفسنا هذا السؤال المضحك أنحن من الجيل التاسع عشر جيل التمدن والنور جيل المبادىء الديموقراطية والاشتراكية والرحمة المسيحية ام نحن على باب القرن العشرين . اجل نحن من الجيل التاسع عشر . . . قبل المسيح وليس بعده . وقد تميز هذا الجيل بالتعصب الدولي ولذلك دعوت خطابي التساهل الديني الناتج عن التعصب الديني لأميزه عن التساهل السياسي . اما المبدأ الاساسي لهما فهو واحد ولا يتغير منه سوى التكوين الخارج والاحوال الظاهرة .

ثم التساهل يكون اما من الدولة واما من الشعب واما ان يكون طوعاً واختياراً واما كرهاً وجبراً . اما التساهل الدولي الديني فهو يشمل الان الدول الاوروبية بمعاملاتها بعضها مع بعض ولكنه لا يشمل الشعوب التي يدعوها الاوروبيون متوحشة فالدول لا تتساهل مع هؤلاء المساكين الضعفاء بل يتساهل بعضها مع بعض لانها تضطر الى ذلك وليس حباً بالمبدأ الشريف فكثيرا ما تراها تشهر الحروب على القبائل الضعيفة وتدعوها حروب الانجيل وذلك لكي يعتنق « البرابرة » الدين المسيحي كرهاً وجبراً . وهذا هو التعصب الدولي الديني هذي هي الاضطهادات التي كانت تمارسها الدول الاوروبية المسيحية بعضها ضد بعض والان تمارسها

ضد « البرابرة » كما ترعم والبرابرة قوم يشعرون ويتألمون مثلنا . هذه هي حروب شارلمان واضطهادات الملكة حنة الانكليزيـة والملك كارلوس الافرنسي . هذه هي مذبحة ليلة القديس برتلماوس فعوضاً عن حدوثها في باريز وفي الجيل السابع عشر تحدث الان في صحارى افريقيا وفيافي آسية وتلول السودان وفي اخر الجيل التاسع عشر . ياللعار وياللشنار ! عبثاً يكتب العلماء وينددد المصلحون ويبحث الفلاسفة . عبثاً اتى السيد المسيح الى الارض لمثل هوءلاء الاقوام

اما الدول المسيحيـة بمعاملاتها بعضها مع بعض فلسنـا نرى للتعصب الديني اثر بينها فصار الكاثوليكيون بأمن وسلام في الجزائر البريطانية والبروتستانيون يأمنون على انفسهم في اسبانيا وفرنسا وايطاليا واليهود لا خوف عليهم من الاخطار والطرد في اي بلاد حلوها ما عدا الروسية وصرنا نرى في مجالس الامراء الانكليزية اللوردة والنواب الكاثوليكيين واليهود . وفي الدولة العثمانية نرى الموظفين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم من المسلمين والمسيحيين والدروز . فالتساهل اذاً في الدولة موجود غير انه بين الملل والشعوب المختلفة مفقود . لان الكاثوليكيين في هذه البلاد الحرة كطائفة لايحبون البروتستانيين والبروتستانيون يكرهون الكاثوليكيين وقس على ذلك في كل الامم لاسيما في الامة السورية فلو كان بوسعنا نحن السوريين كلنا لاضطهد بعضنا

بعضاً وشهرنا على بعضنا الحروب الدموية ولكن الدولة لا تساعدنا على الاضطهاد الديني ورؤساء الاديان لا يستطيعون ذلك وحدهم ولو استطاعوا لا يترددون .

عندنا نحن شيء اقبح من الاضطهاد واضر من الحروب . عندنا السياسة السرية والايدي الخفية والاعمال الباطنة الشيطانية فكل هذه المنكرات تشير الى غرض واحد وهي اكبر باعث على ابتعادنا وانقسامنا بعضنا على بعض ومعاداة بعضنا لبعض . فالسياسة الخفية هذه اقبح من الاضطهاد لاننا بالاضطهاد نستأصل دابر من خالفنا بالمذهب فلا يبقى لنا معاند مفاخر ولا عدو مكابر ولكن السياسة السرية تفسد القلوب وتقتل في الانسان كل عاطفة شريفة . السياسة هذه هي الجبن والضعف واللوم والخيانة والغش والنفاق والايدي التي لا تظهر مخالبها الا في الظلمة الكالحة يدعو عليها بالكسر كل حر صادق وكل شجاع . هذه سياسة سيئة غايتها ووخيمة عاقبتها وابناء امة واحدة يبقون بسببها منقسمين منفردين عاجزين عن العمل مشمولين بالخمول ومكتنفين بالجهل فيتسلط عليهم شعب آخر او امة غريبة فيبقون اذلاء جبناء الى ما شاء الله . هذه سياسة لا طائل تحتها ولا نجاح وراءها بل ان صاحبها يلقى الفشل ويبتلى بخيبة الامل قبل ان تمتد نيران فتنته فتفضي بالامة الى البوار

ايها السوريون نحن امة لا يتجاوز عددها ثلاثة ملايين نفساً

منهم مليون متشتت في اقطار المعمور الأربعة فاذا وجد فينا خمسة عشر حزباً او ملة فماذا ياترى تكون عاقبة شقاقنا وانقسامنا

الا يكفينا الضعف الذي يشملنا بكوننا امة صغيرة حقيرة حتى نبتلي ايضاً بضعف الانقسام وماذا تكون قوة كل حزب او كل طائفة اذا شرعت تعمل عملاً خطيراً يستغرق الوقت الطويل والسهر والكد والاجتهاد ويستوجب تضحية المال والنفوس وخيرات البلاد .

اي عمل قامت به هذه الطوائف الصغيرة وكانت فوائده اكثر من اضراره ؟

فلو كان عددنا مائة مليون لما ضرنا انقسام الاحزاب الى عشرين حزباً ولا خمسة عشر طائفة فعندئذٍ يكون الحزب قوياً واذا شرع يعمل عملاً او ينهض نهضة سياسية او ادبية كللها بالفوز والظفر . هذه الامة الاميريكية يبلغ عدد سكانها ما ينيف على الثمانين مليوناً ومع ذلك لانرى فيها اكثر من خمسة احزاب سياسية واما الطوائف الدينية فكثيرة ولكن لا قوة ولا ذكر لها في الامور السياسية والوطنية والمدنية . قد سلبت منها سلطتها او بالحري قتلت بيدها ولذلك هي ضعيفة ذليلة . قد قالت الحكومة الجمهورية لهذه الطوائف الدينية ما معناه : لكل دين حق البقاء ولا حق لدين ان يبيد ديناً آخر بالقوة الوحشية .

لكل دين حق البقاء ! افتكروا في ذلك وابقوا هذه الآية في حافظتكم . ودولتنا العثمانية تنهج نفس المنهج فالمسلمون يتساهلون مع النصارى ويسمحون لهم بممارسة دينهم حسب طقوسهم وتقاليدهم ولما كان الانسان يجتهد ليستفيد من كل شيء استنتجت الدول ولاسيما الدولة العثمانية نتيجة حسنة تأول الى سياستها بالراحة تعويضاً عن لذة الاضطهاد الوحشية فغدا التساهل ضرباً من السياسة الدولية بواسطتها تستميل الدولة الرؤساء والرؤساء قادة الشعب وسادته فتصبح البلاد بواسطة هذه السياسة براحة وطاعة — راحة لاتشكر ولا تراد وطاعة لاتحمد ولاتحد . اني افضل الاضطراب والعذاب على هذه الراحة اني افضل الثورة على هذه الراحة الممقوتة . راحة الذل والخمول راحة الجهل والعبودية .

وكانت قد اتخذت هذه الخطة الدولة الرومانية التي كانت تتساهل بوجود الاديان في الاجيال الاولى للمسيح . وقد وصف هذا التساهل المؤرخ الشهير غِبُّن بكلام وجيز مفيد فصيح قال : « ان انواع العبادات على اختلافها كانت سائدة في العالم الروماني وكان الشعب يعتقدها كلها صحيحة والفلاسفة يعتقدونها كلها خرافية والحكام رأوها كلها نافعة مفيدة » . هذا كلام فيلسوف ومؤرخ مدقق . افتكروا به . وهكذا انتشر التساهل وجلب على الشعب ليس فقط السلام والراحة بل

الائتلاف الديني والجامعة المدنية فالحاكم هنا رأى في الديانات المختلفة شيئاً مفيداً وقال في نفسه فلندعهم يختلفون ما دام اختلافهم يسبب غبطتنا وسعادتنا ويؤيد سلطتنا ويعظم شوكتنا ويرفع مجدنا .

والدولة العثمانية تتساهل مع النصارى كي تبقيهم اذلاء شاكرين ولرؤسائهم مطيعين ولسلطتها خاضعين !

قد برهنت لكم كيف الدولة تتساهل مع النصارى ولا اظن احداً منكم يشك في تساهل المسلمين معنا ولكن عجباً كيف ان النصارى لا يتساهلون بعضهم مع بعض . الاجانب يتساهلون معنا ونحن لا نتساهل مع اخواننا في الوطن الواحد ولا نواري اختلافاتنا عند مصلحة امتنا ولا نتناسى ضغائننا عند محبة وطننا ونجاحه ولربما قال بعض اللاهوتيين : كيف نتساهل مع من لا صحة لدينهم ولا حق في معتقدهم فاقول : ان التساهل مبني على التناقض والخلاف في صحة من ادعى الصحة وبوحي من ادعى الوحي ولو لم يكن ذلك لما تساهلت الحكومة مع الطوائف المخالفة لمذهبها لان الغاية القصوى من غايات الحكومة المتعددة هي ان تحامي عن كل مبدأ صحيح وتكفل لكل رجل حرية القول والفعل اذا لم تمس حرية غيره . فلو تأكدت الحكومة ان الدين الفلاني هو الدين الصحيح لما كانت تساهلت مع بقية الاديان ولا اجازت ممارسة دين يخالف هذا الدين الصحيح الا

لغاية سياسية كما ذكرت ولكن لما كان الخلاف سائداً والتناقض شائعاً والحكومة المدنية تهتم بسياستنا فقط وكل من روءساء الاديان يدعي صحة دينه ضاع صواب الشاعر في ضوضاء اقوالهم فانشد قائلاً :

„ في اللاذقيــة ضجة ما بين احمد والمسيح
هــذا بناقوس يدق وذا بمأذنــة يصيح
كل يعظم دينــه ياليت شعري ما الصحيح"

الله لا يفضل امة على امة ولا طائفة على طائفة الله لم يصطف له في الارض شعباً خاصاً من حيث انه ذرية لها حق الانتماء الى اختيار الله لها دون غيرها وما يقرأ في التوراة من تفضيل الاسرائيليين على غيرهم فلكون عبادة الاصنام والمنحوتات وسائر المخلوقات هي من خرافات الدين فلو تركها قوم من المغضوب عليهم كما في التوراة وساروا بحسب الناموس الطبيعي لكانوا كالاسرائيليين الذين استلموا الوصايا اذ الوصايا العشر كلها طبيعية يفهم ضرورتها العقل المتنور ويغلط من يفهم اختيار الله للاسرائيليين انه اختارهم ليعضدهم ويهديهم دون غيرهم فلو كان هذا هو المفهوم لبقيت عجائبه فيهم بعد مجيء المسيح ايضاً . ولكن عدل الله ارفع من ان يحصر خلاصه بذرية دون غيرها ولذلك قال في الانجيل الطاهر اذهبوا وبشروا كل الامم . ان من سار حسب الشرائع الطبيعية فعمل الخير وابتعد عن الشر كما يرشده عقله ولم يتوصل الى معرفة الدين

الحقيقي فانه لا يهلك لان الله رؤوف و رأفته لا منتهى لها ولذلك اقول مع محمد (صلعم) ما الناس الا امة واحدة . هذه آية منزلة وهي عين الحكمة التي اوحاها الله لاوليائه . ما الناس إلا امة واحدة . افتكروا فيها . انها لآية فلسفية سامية وما الدين التوحيدي الا دين واحد فكلنا نتحد بالرب و كلنا نعبد الهاً واحداً

قلت ان التساهل مبني على الخلاف وادعاء الحق اللذين قد يكونان اوصلا الشبطيقيين الى الشك في كل شيء فقالوا عن كل امر « لا ندري » وهم اللاادرية المسخور بهم لانهم يقولون لا ندري عما هو حقيقة مدركة لا لانهم يقرون بقصورهم عن ادراك مسائل شتى وحقائق فوق العقل ففي مثل هذه الحال تفتخر العلماء والحكماء بقولهم لا ندري جواباً عن المسائل التي تفوق مداركهم والكنوه الالهية التي يعجز عن تحديدها العقل البشري . فلمَ نتعصب ولِمَ نستبد ما دمنا نتذبذب من ضعفنا عن البحث في امور دينية كثيرة لم يصل العقل اليها . من قال لا ادري جواباً عن مسألة لا علم له بها فقد برهن عن صحة عقله . وسلامة ذوقه . وحسن رأيه . وعمق حكمته . وثاقب فطنته .

وقول القائل لا ادري كما قال العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي خير من ان يقال له اخطأت وقد عد ذلك من جملة مآثر ذوي العلم وادلة كماله فيهم حتى ان السيوطي عقد باباً في كتاب من مؤلفاته في من سئل من العلماء عن شيء وقال لا ادري فذكر

عدة من مشاهيرهم كالاصمعي وابن دريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة . قال الزعفراني : كنت يوماً بحضرة ابي العباس الثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري فقال له بعض من حضر اتقول لا ادري واليك تضرب كبار الابل واليك الرحلة من كل بلد ؟ فقال : لو كان لأمك تمر بقدر لا ادري لاستغنت . وسئل الشعبي عن مسألة فقال : لا ادري . فقيل له : فبأي شيء تأخذ رزق السلطان ؟ فقال : لاقول فيما لا ادري لا ادري . ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيس قال : ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له : أمطر يكون بعد الهلال ام صحو ؟ فقال لا ادري . قالت اذاً ما علة اتصال الغيث في هذا العام ؟ قال : هذا مما لا نعلمه . قالت : اتظن سكان المشتري يكونون على خلقنا ؟ قال ايتها السيدة اني لا اعلم شيئاً عن ذلك . قالت : ياعجباً فلمَ يتبحر المرء في العلم اذاً ؟ قال ليقول احياناً انني لا اعلم شيئاً .

فلنتساهل اذاً في الدين اذ اننا لاندري والذي يدعي المعرفة هو هو الذي لا يدري بانه لا يدري بل يخبط في الامور خبط عشواء . فليبقَ كل على دينه اذا دله عقله على صحته بعد التنور الكافي والترفع عن الاهواء ولا ينتظرنَّ احد روءية دينٍ غير مستصوب بتمامه كما يرى الحقائق الرياضية والعلمية مثلاً مما هو

مستصوب بتمامه ·

ولتجمعنا الوطنية   اذا فرقنا الدين   والله لايريد التفريق

لا تأخذوا كلامي على غير مأخذه ولا تحملوه على غير محمله وتقذفوا عليّ لحق ظاهر بكلمة باطلة فتقولوا وا أسفاه على من لا يعرف الدين الصحيح فان قلتم ذلك فانا انشد معكم قائلاً اسفاً على العالم باسره ما اكثر الضلال فيه · واصغوا اذا شئتم لاقص عليكم روءيا رأيتها ذات ليلة و كنت قبل ذهابي الى الفراش اترصد النجوم والكواكب واستطلع طلعة البدر تحدجني السماء بعينها الزرقاء واتأمل في ما رصعتها به يد القدير من الدراري الزاهرة كالمصابيح الباهرة · حدث لي ذلك لما كنت في جبل لبنان الجبل العزيز الذي كثرت فيه الخرافات وتعددت بين سكانه البسطاء المذاهب والديانات · الجبل الذي ترى في اكثر جهاته الشمامسة والكنائس والأديار والقلانس · الجبل الذي ابتزت خيراته الكثيرة روءساء الدين والدنيا وضاعت بين كيس هذا وجراب ذاك · وملكت ارزاقه الرهبانيات العديدة الوطنية والاجنبية وفي مقدمتها الرهبانية اليسوعية ·

كنت في تلك الليلة اتأمل في الكواكب والبدر والثريا ودرب التبان التي تدعى ايضاً نهر المجرة وقد شبهتها بدرب التساهل على الارض لانها بيضاء نقية تسري بها النجوم في مناطقها لا تلتطم فهن موءتلفات مفترقات لاتتساقط منها الشهب

ولا تتنافر اجرامها في دورانها .

فلكثرة تأملي في الخالق والعزة الالهية في تلك الليلة البهية حلمت باني – صعدت الى السماء حياً في مركبة من نار – ولما دخلت تلك الجنة الالهيـة التي يعجز عن وصفها بيان الانسان رأيت هناك عرشاً مرتفعاً عظيماً يأخذ بالابصار لشدة تألقه ولمعانه . ورأيت امام ذلك العرش اربعة رجال منتصبين ممتثلين امام الديان العظيـم كل منهم يرشق الآخر بنظرة الغضب والبغض فسألت احد الملائكة عنهم فاجابني قائلاً :

ان هؤلاء هم ممثلوا اديان العالم في السماء فهذا سفير المسيحية . وذاك سفير الاسلام . وهذا سفير البوذية . وذاك سفير اليهودية . فقلت : وماذا يبتغون من العزة الالهية ؟ فقال : قد اقلقوا راحة الملائكة وسكان هذه الديار بخصوماتهم واختلافاتهم المتواصلة وجاؤوا الان يستغيثون رب السماوات والارض . وبعـد ان تشاغبوا وتشاكسوا واوشك ان يفضي بهم الامر الى القتال وكل يتهم الآخر بالكذب والبهتان نظر الديان العظيم اليهم برأفة وحنان وقال : كلكم يا ابنائي صادقون – كلكم صادقون .

قلت في بدء خطابي يجب علينا ان لا نجيز ما لا يستصوب بتمامه ان يفرّق بيننا ويشتت شملنا ويقسمنا على انفسنا كوننا امة ضعيفة صغيرة نحتاج الى التناصر والتعاون غاية الاحتياج ولم اقل ذلك الا بعد ان رأيت كيف اخذ الدين منا كل مأخذ فنخلطه

بكل اشغالنا ونتخذه حجة بكل اعمالنا فالتجارة عندنا تجارة دينية والجمعيات جمعيات دينية والنزل (اللوكندات) نزل دينية والبقال بقال ديني وقس على ذلك وهذا الذي يبعثنا على الانقسام الذي يسببه التعصب الديني الذميم .

فلنتناسَ الديانة في التجارة ولننبذ التجارة في الاجتماعات السياسية والادبية ولنسجد لربنا ولنمجده (اذا كان لنا رب غير المال) مفترقين في المعابد والكنائس فقط اذ انها شيدت لهذه الغاية واني لاعجب من التناقض الذي يخالط اعمالنا وعقائدنا فمن وجه نقول ان الدين هبط من وراء الغيوم وهو مقدس ومن وجه آخر نستخدم الدين لتنفيذ مآربنا الدنيئة فنسلب منه القداسة وننزع عنه الاحترام بادخالنا اياه الدوائر المدنية من تجارية وسياسية وادبية .

هل اوحي الدين ليقينا من الفاقة ويكفل لنا المسرة واللذة في هذا العالم ؟

هل اوحي الدين لنتخذه عضداً لنا بتحقيق امانينا الدنيئة وابتغاء الاشياء الزمنية التي لا حد لها ؟

هل اوحي الدين ليساعدنا على الجشع والطمع والتحامل على ابناء جنسنا والازدراء بهم ؟

هل اوحي الدين ليكون سبباً اولاً للخصام والشقاق والقتال؟

هل اوحي الدين لتتسلح به فئة من الناس ضد فئة وتستخدمه

كسيف تسله على كل من لا يقر لها بالسلطة الوهمية ؟

هل اوحي الدين لتأسيس الدواوين التفتيشية التي تألفت في رومية واسبانيا والتي ارعبت العالم بظلمها واستبدادها وجرائمها الفظيعة ؟

هل وجد الدين لبعضهم وسيلة لافساد الهيئة البشرية ؟

هل وجد الدين كي يستخدمه الروءساء آلة نافعة لتنفيذ مآربهم الخصوصية وغاياتهم الشخصية ؟

هل وجد الدين كي يتعصب به خدمة الاديان ويستأثروا بالسلطة المسلوبة فيظلموا العباد ويضطهدوا من خالفهم في الرأي ويحتقروا من هو اعظم منهم علماً وفلسفة وعقلاً ؟

هل وجد الدين كي نفسده ونصلحه ونغيره ونقلبه بطناً لظهر ؟ كلا ثم كلا ثم كلا .

لو نظر الله عز وجل كما ينظر البشر الى نتيجة وحيه لما كان تعذب وتنازل ليكلم موسى وعيسى ومحمداً صلواته عليهم جميعاً . ولو نظر ايضاً الى ان عاقبة الدين الذي انزله ستكون الاضطهاد والطرد والحروب والشقاق والخصومة لكان ابقاه عنده في السماء ولكن الله . . . . . الله اعلم .

الدين اما موحى واما غير موحى . اما مقدس واما غير مقدس فاذا كان موحى ومقدساً فلا يحق لنا ان نتخذه واسطة لتحسين اشغالنا التجارية . وتنفيذ غاياتنا الشخصية . فنلحق بامتنا الضرر

الجسيم . اذ اننا نكون حجر عثرة في سبيل الجامعة التي يجب ان تجمعنا كسوريين ونحن بحاجة كلية الى الجامعة الآن . قلت واقول ذلك مراراً . واما اذا كان الدين غير موحى وغير مقدس فاری من وجه الحكمة ان لا نتمسك الا بالجيد منه وننبذ الباقي ظهرياً نبذ النواة ولكن الدين مقدس ولذلك يقدم له الشعب الاحترام ومنه ما قدسته العادات التي مكنها الزمان وثبتتها الممارسة و كفى بذلك قداسة تفرض علينا الاحترام والتوقير والاعتبار .

لماذا اذاً نستخف بالدين ونتخذه كالعوبة نلتهي بها في الشوارع والحوانيت . نحن باخراجنا الدين من الكنائس لغاية عالمية نرذله ونجدف عليه . ومن التعصب الممقوت ان نميز كل حانوت وكل بيت تجارة وكل ادارة او كل جمعية بدين مخصوص فنقول هذا التاجر ماروني وذاك الطبيب ارثوذكسي وهذا الصحافي كاثوليكي وما شاكل ذلك . ما هذه الحالة التي وصلنا اليها . أينقصنا شيء الا ان نضيف الى اسمائنا اسماء طوائفنا ونقول زيد الماروني وعمر الارثوذكسي ومحمد المسلم . فتمشوا معي لاريكم كيف تنقسم تجارنا وجرائدنا ونزلنا واطباؤنا وجمعياتنا . اولاً عندنا التجار المارونيون والتجار الارثوذكسيون والتجار الكاثوليكيون والتجار البروتستانيون . واي من هؤلاء التجار المستقيمين يبيع سلعه وسبحه ودبابيسه لقديسينا المكرمين .

أيتعامل التاجر الارثوذكسي مع مار متري ومار نقولا ؟ أيتعامل صديقنا الماروني مع ابينا مار مارون ؟ وعندنا الجرائد المارونية والجرائد الكاثوليكية والجرائد الارثوذكسية . وعندنا المطاعم المارونية والمطاعم الارثوذكسية والمطاعم الكاثوليكية والمطاعم البروتستانية . واي منهم نزل طعامها من السماء ؟ وهل يريد القديسون ان نمجدهم بالكبه والهريسه والمجدره ؟ وعندنا الجمعيات الخيرية المارونية والارثوذكسية والكاثوليكية وما ضرهم لو كانت كلها جمعية واحدة — جمعية خيرية سورية ؟

ونارٌ ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد
لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذه الحالة تعتور كل اعمالنا واشغالنا وحرفنا

متى تزول الشقاقات الدينية ويداس التعصب تحت نعال المدنية .

متى نؤلف جمعية التساهل ونبني كنيسة التساهل ونشيد مدرسة التساهل ونؤسس جريدة التساهل ونفتح محل التساهل ولوكندة التساهل وتصير اعمالنا كلها تساهلاً بتساهل . اي متى تشملنا هذه الحالة السعيدة ؟

انا الآن اقترح على اصحاب جرائدنا العربية في الثغر خصوصاً وفي العالم العربي عموماً اذا كان صوتي هذا الضعيف يصل اليهم ان ينشروا على صفحات جرائدهم الغراء اعلاناً باحرف

ضخمة كبيرة عن التساهل الديني وانه يعطى بلا ثمن ومن اراد ان يقتنيه ويعمل به فليقرع باب ضميره فهو البائع وهو الشاري . هو الواهب وهو الموهوب . ولو كنت ذا قدرة مالية لنشرت هذا الاعلان على نفقتي فيسدني الحساب الله يوم الغنيمة . يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً . فلنتساهل اذاً . فلننشر اعلان التساهل .

التساهل ايها الشيوخ الاجلاء . التساهل ايها الشبان الادباء . التساهل ايها الصحافيون والاطباء . التساهل ايها التجار والرؤساء . التساهل ايها السوريون الاحباء . التساهل ! لو كان لي الف لسان ولو تكلمت من الان الى يوم الدين لما عييت من تكرار وترديد هذه اللفظة العذبة السهلة اللطيفة . لفظة كرهتها الاجيال المتوسطة وكلف بها الجيل التاسع عشر . لفظة عززتها الجمهورية في هذا الجيل . لفظة انفتحت لها قلوب المتمدنين المخلصين لابناء جنسهم وتأهلت بها الضمائر الحرة والعقول الصحيحة . لفظة طيب شذاها يملأ الفضاء وذكاء عرفها ينعش الصدور . هي احسن واظرف والطف وابدع وامتن واجمل وارفع واسهل لفظة وجدت في معاجم اللغة

التساهل هو اساس التمدن الحديث وحجر زاوية الجامعة المدنية .

التساهل شدد عزم الاحرار فبرزت من عقولهم اسمى الافكار

التساهل اوجد الترقي والتقدم في كل فروع العلم والدين

والفلسفة .

التساهل أيد سلطة الضمير ومحق السلطة التي لم ينزل الله بها من سلطان .

التساهل اعطى كل امرىء حقه فتمتع به ومارسه بحرية واستقلال .

التساهل وضع حدّا للاضطهادات الفظيعة وكسر السيف الذي استخدمته الدول لاستئصال شأفة من خالفها بالمذهب .

التساهل اطفأ بنفسه القوي النار التي اضرمها الاكليروس لمحاربة اليهود والكفار .

التساهل جعل كل رجل صحيح العقل والجسم اهلاً للوظائف في الدولة واهلاً للانتخاب .

التساهل قوّض عرش التعصب وبدّد جحافل الجور والعسف الدينية .

التساهل قال للكنيسة انت سلطانة وقال للانسان ايضاً انت بذاتك سلطان . وكل له حدود واينما وجدت الحدود كانت الحقوق واصبح الامر خارجاً عنها ظلماً والإنهاء جوراً .

التساهل هو اللين والرفق والمسامحة وهو الحلم والسلام والحكمة

التساهل يحسم الاختلاف ويمهد سبل الائتلاف .

التساهل يزيد الانسان غبطة وسعادة ونجاحاً في الحياة الدنيا ولا يضيره في الاخرة .

التساهل هو الطريق الوحيد الذي من تحته تجري الانهار وعن يمينه ويساره الاشجار . طريق يدر لبناً وعسلاً . طريق مستوٍ مستقيم لا يميل بنا عن روض السماء .

التساهل هو الدواء لكل داء ادبي او ديني او سياسي اوعلمي

التساهل اصيل لا تنكره التوراة ولا الانجيل ولا القرآن ولتأكيد ذلك نذكر بعض الايات الانجيلية والقرآنية .

« من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فدع له رداءك ايضاً . ومن سخرك ميلاً فسر معه اثنين » (متى ٦٥ و٤٠ و٤١) « ان الله لا يحابي بالوجوه فكل رجل من اي امة كان يصنع الخير ويكره الشر فهو مقبول عند الله » . (بطرس الرسول)

افعلوا بالغير ما تريدون ان يفعله الغير بكم او كما قالها كنفوشيوس الذي عاش قبل المسيح باربعمائة سنة « لا تفعلوا بالغير ما لا تريدون ان يفعله الغير بكم » . وهذا الآية هي منزلة . هي الآية الذهبية الفلسفية . هي كل الدين وكل الادب وكل الشريعة وكل العدل وكل الفضيلة .

ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . (سورة البقرة)

من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون . (سورة هود)

من اسلم وجهه لله وهو محسن . ما قال وهو ماروني او ارثوذكسي او مسيحي او يهودي او محمدي . قال : من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ما اجمل هذه الآية وما اشرف تلك الآية الذهبية التي مر ذكرها . ان هاتين الآيتين عظيمتان . الواحدة منهما من الانجيل والثانية من القرآن . انهما منزلتان . ذهبيتان . فلسفيتان . اني اهبكم كل الكتب المقدسة بهاتين الآيتين .

ادفع بالتي هي احسن السيئة (سورة المؤمنين) اليس هذا ضرباً من التساهل ؟

لا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن (سورة العنكبوت) ايشتم من هذه الاية رائحة التعصب ؟

التساهل اذن هو الناموس وهو الطريق وهو النور وهو معطي الحق وهو الحياة وهو روح الله . هو اول درجة في سلم العمران وآخرها . هو الالف وهو الياء

التساهل هو الباب . ومن يدخل فيه لا يهلك . فلندخل اذاً فلندخل ! فلندخل !! فلندخل !!!



المقالات

وصية فؤاد باشا السياسية [١]

قيل ان دخول الحقيقة قصور الملوك لمن اصعب الامور . وهي حقيقة جديرة بالنظر . فلو تأملها الساسة العثمانيون والمصلحون لكانوا يقلعون عن مخاطبة الحاكم في اصلاح شؤون الدولة . فالحاكم لا يصلح . الحاكم يحكم . وعلى المحكومين اذا كان النير عليهم ثقيلاً ان يخلعوه وينبذوه . على المحكومين اذا كان الحاكم ظالماً ان يصلحوه او يأبوه .

فالحاكم الظالم مظلوم مثل رعيته . وكفاه متاعب الحكم وعذابه متى بدأ النير يتقلقل على رقاب العباد . لو كنت انت الحاكم ايها القارىء المظلوم وجاءك وزيرك ذات يوم يقول : قد تخلّع النير وتفككت يامولاي . فماذا تقول له اذا كنت لا تستطيع اصطناع او ابتياع نير جديد ؟ اتامره بان ينزع النير المخلع او يصلحه ؟ لا . فانك تقول له : اصلحه وثبته في مكانه . وهذا هو الاصلاح الذي يباشره الملوك والسلاطين هذا اذا كان يرجى منهم اصلاح .

(١) ترجمها الى العربية جميل بك معلوف وطبعت في مطبعة المناظر بسان باولو برازيل

وجدير بنا ان نذكر ان الاصطلاحات التي جرت في الدول الاجنبية لم تكن الا نتيجة القسوة التي استخدمها الشعب نحو حاكمه . والشعب لا يلتجىء الى هذه الوسيلة الفعالة الا اذا افاق من سباته وتنبه الى حقوقه وتهذب شعوره المدني . فبدل ان نوجه الكلام في وصيتنا السياسية اذاً الى الحاكم لنعلمه بان الخير تخلع ويقتضي اصلاحه - بدل ان نبسط الكلام الى السلطان في كيفية تأييد وتعزيز دولة استبدادية كان الاجدر بنا ان نبسطه الى الشعب المظلوم فنريه بعض اسباب الظلم التي تورث البلاء والشقاء . ونهديه الى بعض الوسائل الفعالة التي تزيل هذه الاسباب .

فلو وجه فؤاد باشا خطابه الى الامة لا الى حاكمها لو وجهه الى المظلوم لا الى الظالم لكان افاد حيث اجاد . لان رأي من يطاع يؤثر في الشعب الجاهل اكثر من رأي من لا يطاع . والافراد المستنيرون يثقون بكلام وزير فقهته الحوادث وانارت العلوم فؤاده . لاسيما وفي هذه الوصية كلمته السياسية الاخيرة . وكلمة السياسي الاخيرة قلما تشوبها السياسة . وقد ادرك هو ذلك اذ قال : « ان الصوت الخارج من القبر لا يكون كاذباً » على انه ان لم يكن كاذباً فقد يكون مخطئاً . وقداسة الضريح لا تمنعنا من ان نشير الى هذا الخطأ . نشير اليه مع اجلالنا صاحب الوصية واعتبارنا وصيته كمجموعة آراء سياسية فيها الغث وفيها السمين . فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احداً منهم . اما

الوصية اجمالاً ففيها دليل ناصع على اختبار صاحبها الواسع وحكمته وعلى تعمقه في درس ما دق وخفي من الامور السياسية . وفيها ايضاً من الاراء السديدة والحكم البليغة ما يسر ويدهش المتفلسفين واليك شيئاً منها

« ان ترقيات جيراننا السريعة وتأخرنا الناتج عن اغلاط اجدادنا غير المقصودة قد اوقعنا الان في مهلكة عظيمة لا يمكن الخلاص من عاقبتها الوخيمة الا بقطع كل علاقة مع حالتنا السابقة والعمل على تجديد قوى الدولة بالوسائط العصرية الحديثة »

وكيف يتسنى للفرد او للامة الانسلاخ عن الماضي . انها لاحدى طرق الاصلاح ولكنها ليست بالاقرب والاسهل . بل هي نتيجة لها مقدمات . وذروة ذات عقبات . فالانسلاخ عن الماضي ليس بامر سهل بل يكون في الغالب مستحيلاً . واما التخلص من « اغلاط اجدادنا غير المقصودة » فتلك مسألة اخرى ومن هذه الاغلاط غلطة مدنية عظيمة بل خرافة سياسية وخيمة لا نظنها تتسلط الى الابد على عقول الناس والامم . فان العلم يزعزعها وان كانت متأصلة في الاجيال . والزمان يهدها وان كانت راسخة كالجبال . ونريد بهذه الغلطة . بل هذه الخرافة . الحكومة الملكية حيث الامة ومعظمها من الفقراء والبائسين تلزم بمعاش فرد عظيم فيها لا يتعيش ابداً في حياته فترضاه عليها ملكاً وتعد له الصروح والقصور وتحيطه بالحجاب والحرس وتنفق عليه

ما ينيف على مئة او مئتي الف ذهباً كل عام فضلاً عما تنفقه على ذريته وحواشيها . ومع ذلك فصاحب التاج والصولجان اليوم قلما ينفع الامة وغالباً يرهقها . فهو اما خيال كملك الانكليز واما مقلق كامبراطور المانيا واما ظالم ك....

ولكنهم كلهم يظلمون متى استطاعوا الى الظلم سبيلاً . فالحكومة الملكية غلطة من اغلاط الاجداد لا بد ان يصلحها لعلم والزمان في كل مكان . وهناك غلطات اخرى ذكر صاحب الوصية بعضها . فالماضي من هذا القبيل يااسيادي لا يتسلط الى الابد على المستقبل . والتقاليد لا تستعبد الامم الى الابد . فان القوى الكامنة في المستقبل الغير المحدود لا تقوى عليها سلطة محدودة هي ابنة اربعماية او الف عام . بل من المستحيل ان تخضع الابدية لبضع ساعات زائلة . ونسبة القرن الى الابدية كنسبة الساعة الى الالف عام . ففي المستقبل اذًا دول جديدة ورجال . ومن خلال المستقبل ينظر الله بعين واحدة الى ذوي المحاريث وذوي التيجان .

اما الترقيات الحديثة التي يروم فوأد باشا ادخالها الى الدولة فانها في رأينا لا تكفي لتعزيزها واصلاح شؤونها . لان السكك الحديدية والتلغرافات والتلفونات والقوات الكهربائية والبخارية جميعها تزيد الامة قوة ولكنها لا تزيدها عقلاً . تزيد الملك مناعة ولكنها لا تزيده علماً . والامة اليوم الى نور العلم الصحيح افقر

منها الى نور الكهرباء . هي احوج الى التهذيب منها الى السلاح ولعمر الحق ان الامة المهذبة لامضى سلاحاً في يد الدولة . نحن الآن الى مدارس راقية وطنيـة افقر منا الى السكك الحديدية . واما اذا وضع حجر زاوية هذه المدرسة عندحدخطوط « السكة » فلا بأس بالاثنـين . واذا كان ذوو الامر يعاملوننا مثلما كان احد الامراء الاشحاء يعامل ذويه فيقول لهم : اليوم تأكلون اما لحماً او عنباً . اختاروا احد الاثنين . فجوابنا حاضر : امسكوا علينا البخار والكهرباء الان واسسوا لنا المدارس الوطنية . دعونانسافر كما كان يسافر اجدادنا ولو فترة اخرى من الزمن . حكيم على حمار خير من حمار في السكة

لنعد الان الى الوصية فقـد جاء فيها : « ولزيادة الايضاح اقول ان دولتكم العلية اذا لم يكن لها قوة انكلترا البحرية وقوة فرنسا العلمية وقوة روسيا العسكرية فلا يمكن سلامتها »

فقوة فرنسا العلمية تكون لنـا في مستقبل الزمن اذا تأسست في المملكة اليوم المدارس العموميـة الوطنية المجانية الاجبارية وامتنع فيها تعليم الاديان لنتخلص رويداً رويداً من التعصب الديني الذميم الذي لم يزل ينخر في عظام العظام والمستنيرين منا . وتأسس من الجامعات الدينية المتعددة جامعة وطنية عثمانية واحدة . عندئذٍ يصير لنا وطن ننتمي اليه . ونستمد من العلم قوة تساعدنا على ادخال الترقيات الحديثة الى بلادنا بواسطـة

شركات وطنية لا شركات اجنبيــة . فتعزز اذ ذاك الدولة مادياً وادبياً وتتمكن قليلاً قليلاً من مساواة الروسية بجنديتها وانكلترا ببحريتها .

قلنا ان التعصب الديني الذميم لم يزل ينخر في عظام العظـام والمستنيرين من العثمانيين . واليك برهاناً على ذلك من نفس هذه الوصية . فان صاحبها على ما هو من سعة الاختبار وغزارة العلم ورجاحة العقل يظل متمسكاً بما يدعيه « اغلاط اجدادنا غــير المقصودة » وينسى مراراً تلك النفس الراقية فيه . فترينا نفسه الفطرية ما يحاول ان يخفيه . فقد جاء في كلامه عن الدين الاسلامي والدين المسيحي (وليته لم يطرق هذا الباب) ما يلي :

« ومهما بلغ عـدد الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز دون ترقي هيئتنا الاجتماعية فانهم جميعهم في خطاء عظيم وضلال مبين . . .

فالدين الاسلامي لتجرده عن قواعـد سر الثالوث والعصمة قد رافق مجرى الترقيات الكونية »

ولسنا نحن من الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز دون ترقي الامة . ولكننا من الزاعمين بان السفسطة تستولي حتى على عقول الوزراء . والشعوذة ابداً تستهويهم . فاذا كان سر الثالوث يؤخر في ترقي الامة ويضر في مصلحة الحكومة وجب ان تكون حكومتنا العثمانيــة ارقى بدرجات من الحكومات المسيحية

لتجرد دينها الرسمي عن هذه الاشرار . واذا كان الدين الاسلامي قد رافق مجرى الترقيات الكونية كما يزعم صاحب الوصية فلمَ لا نرى لهذه الترقيات اثرًا في دولتنا العلية ؟ لا والله فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احدًا منهم . فانهم دائمًا يؤثرون الحقيقة الوقتية الزائلة على الحقيقة الدائمة الابدية . واذا كان الفرق بين الاثنتين غير باد للقارئ اللبيب فبكلمة ابسط نقول ان السياسي يستخرج دائمًا من الحوادث والاحوال شيئًا من الحكمة السطحية ويدمغها بدمغة الحقيقة السامية . ولولا ذلك لخلت اقوال فؤاد باشا من التعصب والتناقض . وهل ممكن ان تتوحد كلمتنا وتتحد عناصر الدولة المختلفة اذا كان وزراؤنا يتغرضون لغير داع ويتعصبون ؟ خذ لك مثالاً آخر من هذا التغرض والتحامل . فان صاحب الوصية يشارك الفلاسفة في ذم الاكليروس ولكنه يبتعد عنهم منددًا حينما يتعرضون للدين الاسلامي . أَجل النظر فيما يلي :

« ويجب على الباب العالي ان لا يغمض الطرف عن المساعي التي ستبذل في سبيل اتحاد كنيستي الارمن والاروام وان يساعد جهده على انتشار المعتقدات الفلسفية بين التبعة المسيحية لانها ترفع عن عاتق بني البشر نفوذ الاكليروس . »

واما التبعة الاسلامية فهي بغنى عن مثل هذه المعتقدات ! نعوذ برب الناس من شر المنطق والقياس . فاذا كانت المعتقدات

الفلسفية تنفع البشر فَلِمَ يتمنى نشرها بين المسيحيين دون المسلمين ؟ لا والله لا . اننا نذكر من المصلحين العثمانيين من كانت نيّاته انظف وانزه من نيّات فؤاد باشا . فهو ضمناً يود لو ازالت الفلسفة الدين المسيحي . على ان الاعتقادات الفلسفية اما ان تكون مضرة بالاديان واما ان تكون نافعة . فاذا كانت مضرة فالدين المسيحي لا يستحقها وحده . واذا كانت نافعة فلا يجوز ان يحرم منها الدين الاسلامي . ارأيت كيف ان الاقوال تسقط الرجال ؟ هل اتضح لك ان بعض السياسيين لا يستحقون النعوت الشريفة التي ينعتهم بها الشعب الغافل . نحن نعلم وكل عاقل يعلم ما للاكليروس بل لرجال الدين على الاطلاق من النفوذ السيّىء على الامة ولكننا لا نقبل ان يقول لنا ذلك على سبيل التعصب سياسي يود اذلالنا . فاذا شاركنا اخواننا المسلمون في انتقاد الاكليروس فليذكروا دام فضلهم بان البطريرك والامام صنوان وان الشيخ والكاهن اخوان . والسلام



تركيا الجديدة وحقوق الانسان [1]

الكتاب النفيس هو الذي تشعر وانت تطالعه بان نفس الكاتب تتنفس في سطوره وخلالها . هو الكتاب الذي لا تجد في صفحة من صفحاته شيئاً من جراثيم القنوط . هو الكتاب الذي يجري دم الحياة الراقية في كلماته . ويشع نور الاخلاص من سطوره . وتتوفر فيه المادة التي تغذي النفس فتنعش فيها الامل وتحيي منها العزيمة والارادة . هو الكتاب الذي يولده العلم مقروناً بالاختبار . والحماسة مقرونة بالتفكر . والجرأة الادبية مقرونة بالحكمة . بل هو الكتاب الذي تتجلى فيه النفس البشرية والذكاء البشري والصناعة الكتابية في ارقى واجمل صفاتها . وان لم يكن كتاب صديقي جميل افندي معلوف من هذه الطبقة العليا فهو من اعلى طبقة دونها .

ولعمري ان الكتاب الذي ينبه العثمانيين في هذه الايام الى ان الامة العثمانية في بداية ثورة عظيمة . وان الثورة السلمية لا تغني عن الثورة العلمية شيئاً . وان التفرنج الحقيقي هو تمول لا تفرنج . وان التمدن كالهواء والنور مشاع لا حجة للافرنج فيه . وان مدارسنا الاكليريكية والسلطانية هي المستنقعات في ارض

(١) تركيا الجديدة وحقوق الانسان تأليف جميل بك معلوف — طبع في مطبعة الناظر بسان باولو برازيل

الحرية العثمانية الجديدة . وان الحكومة الدستورية ومجلس الامة لا يسلمان من الخطر ان لم تصلح حالة العثمانيين الاجتماعية باصلاح العائلة وحالتهم الادبية باصلاح المدارس . وان من الخطأ ان تضع حجراً واحداً من البناء الجديد قبل ان يسقط البناء القديم باسره . وان استناد الشرقيين على الدين في احوالهم العالمية يقضي على مستقبلهم السياسي والاجتماعي والادبي . وان الحرية متى حلت ارضاً لا تسمح ببقاء نصف اهلها عبيداً بينما النصف الآخر احرار وان الحكومة التي تستعبد رعيتها يسلط الله عليها حكومة اقوى منها فتستعبدها (وما ظالم الا ويبلى باظلم) وان الثورة التي تنفع حقاً شعوب الارض هي التي يقوم بها المصلحون على المبادىء الفاسدة لا التي يقوم بها السياسيون على الحكومة — الكتاب الذي يصدع بمثل هذه الحقائق هو حري بالاعتبار . الكتاب الذي فيه مثل هذه المنبهات والمقويات لامة دوختها المظالم السياسية وخدرتها الخرافات الدينية هو حقاً جدير بان يطالعه كل عثماني .

على ان المؤلف حباً بوطنه يفادي في بعض المواطن بحكمته . فقد يطلق العنان لحماسته في مضمار ضيق فيضطر وقد بدت له الهاوية ان يقف غير موفق دفعة واحدة . وهذا هو السبب فيما جاء في بعض الفصول من تزعزع الرأي والتضعضع . فاننا لا نستصوب البحث الآن فيما قد يعود على الامة وهي لم تكد تقف على رجليها بالنكسة والبلاء . اذ ما الفائدة

اليوم من البحث في استقلال الولايات مثلاً والحكومة الرئيسية لم تتخلص بعد من سيطرة دول اوروبا ومداخلاتها . وما الفائدة من البحث في اقفال المدارس الاجنبية وابطال الامتيازات الاوروبية ونحن لم نزل عاجزين . وان تحريض الشعب على مثل هذه الامور يحدث في البلاد من القلاقل والفتن ما قد يلحق طفل الحرية منها لطمة واحدة فتقتله وتقضي علينا بالخضوع لنير اوروبا . واما نشر ما يدعوه صديقي جميل افندي الديانة الوطنية اي ديانة حب الوطن فهذا وحده يخلصنا رويداً رويداً من النفوذ الاجنبي . من هذه المدارس الاكليريكية وهذه الامتيازات الاوروبية . فمدارس (آبائنا) اليسوعيين مثلاً تضطر ان تقفل ابوابها متى تأسست ازاءها مدارس وطنية كاملة العدة . مستوفية الشروط .

والبوسطات الاوروبية تمنح مأموريها عطلة على الدوام متى رأت ان دخلها لا يقوم بنفقاتهم . والامتيازات الاجنبية تسقط دون ان نسقط او نقوم عليها متى نبغ فينا رجال يستطيعون ان يقوموا باعمال اصحاب هذه الامتيازات حق القيام . وكل ذلك ممكن يا اسيادي متى أُصلحت داخلية الحكومة وظهرت فيها نتيجة اعمال الاختصاصيين الاوروبيين المشتغلين فيها الان . كل ذلك ممكن متى بدأت الحكومة تؤثر المقتدرين والمتمولين والنابغين من رعيتها على امثالهم من الاجانب .

حينما تنمو في الامة عاطفة الوطنية يقوم الوطنيون اذًا بما تطلبه حياتنا الجديدة وامتنا الحرة من المشاريع الخطيرة . وبكلمة اخرى حينما تنشر فيها ديانة حب الوطن — الديانة الجامعة المقدسة — يضعف نفوذ الاجانب ويتلاشى . وتسقط الامتيازات الاجنبية . كما سقطت دولتنا الاستبدادية . بطريقة هادئة سليمة .

هذا ما احب ان الفت اليه نظر صديقي المؤلف لانني رأيته في مثل هذه المواقف يفادي بحكمته حباً بوطنه . ولعمري هي ضحية ثمينة في كل زمان ومكان وفي اي سبيل كان .



فاتحة مباركة

جاء في النطق الشاهاني كما دعته الصحافة . او خطاب العرش كما يدعى عند الانكليز . او خطاب الحاكم والوزراء كما هي الحقيقة . ان السبب في فض مجلس النواب الاول هو ان الامة العثمانية لم تكن اذ ذاك اهلاً لحكومة نيابية . وهو عذر سياسي لا عذر حقيقي . وان روح مجلسنا الاول لتتميز غيظاً لدى استماعها هذا الكلام . وكاننا بها تقول : الكذب محذور في الدين ولكنه مباح في السياسة . وكيف لا تكون الامة اهلاً لحكومة نيابية ومفاوضات المجلس في ذاك الحين ادهشت حتى الاوروبيين ! فضلاً عن ان الحاكم بامره يستطيع ان يفسد ويستبد . بل الحاكم المطلق العادل . الحاكم المحب رعيته العامل لخير امته . يستطيع ان يقلب حكومته الاستبدادية الى حكومة نيابية في ليلة واحدة اذا شاءت جلالته . ولا ينجم عن مثل هذا الانقلاب السريع ما يضر بالامة او يقلقها . لان من اطاع مليكه وهو ظالم يعبده لا شك وهو عادل . وما حدث في الامة اليابانية وحكومتها يؤيد من هذا القبيل حجتنا . واننا لنكتفي بهذه الاشارة الى ما جاء في الخطاب عن عدم اهلية الامة . لان ما مضى قد مضى ومجلس النواب قد عاد ليحيا ان شاء الله

على ان في الخطاب مأخذاً آخر جديراً بالانتقاد . وعلى

النواب والصحافيين ان يتيقظوا لمثل هذه التمويهات السياسية . وليذكروا دام فضلهم بان حكومتنا النيابية اليوم لم تزل مكتنفة بظل حكومتنا بالامس المظلم الكثيف . والى ان تخرج من هذا الظل وتنفض عنها غبار السياسة القديمة سيبقى التمويه سائداً بين العرش والنواب او بين الحكومة والامة . وانها والله لفاتحة غير حميدة ونحن في فجر حياة جديدة . لان الحكومة التي تخرج من باب العسف والظلم فتدخل توّا باب التمويه والمواربة لا تكون قد حققت آمال الامة والوطن . اذاً ماذا عسى ان يراد في ما جاء في خطاب العرش من ان السبب في اعادة مجلس النواب هو ان الامة والسعي في الثلاثين سنة الاخيرة لنشر المعارف كان متواصلاً اصبحت الان اهلاً لان تحكم نفسها بنفسها . فهل يراد بكلام العرش ان الفضل للحكومة في نشر المعارف والعلوم في الامة ؟ او ان بين الوزراء من يحسن المجون ويجد حتى في هذا الوقت فرصة للمداعبة ؟

ومن يجهل ان الحكومة الماضية سعت سعياً جميلاً لنشر العلوم والمعارف بواسطة المراقبة ؟ ومن ينكر أن يدَ الجاسوسية ساعدت في زرع بذور الحرية ؟ ومن لا يعلم بان نور الحق والمساواة كان ينبعث على المابين من قعر البوسفور . وان اشعة الدستور كانت تنعكس على العرش من منفى الاحرار ومن نجومهم الآفلة ؟ اجل ان حكومتنا في الامس كانت تروض الامة

وتؤدبها لتكون اهلاً لحكومة نيابية . فالمراقبة والجاسوسية استاذا الامة الماهران . والبوسفور والمنفى هما الفلق والقضيب . والحمد لله قد تحررنا بعد ان تكسرت رؤوسنا وارجلنا .

ان حكومتنا النيابية اذًا لهي من مكارم حكومتنا الاستبدادية . شيء والله جميل . فمن يقول الآن ان العوسج لا يثمر ثمرًا طيباً ؟ بل ان دستورنا هو من مكارم « مالك رقاب العباد » لا نتيجة سعي الاحرار والجند لرفع النير عن رقاب العباد . فان كان كذلك فلمَ لم يتكرموا به قبل ان جمع نيازي جنوده واستل انور حسامه ؟

لا يا ايها الاخوان لا يحق ان يقال ذلك في هذا الزمان . واعلموا انا في زمن لا يرد فيه تيار العلم مهما اشتدت المراقبة ولا يطفأ فيه مصباح الحرية مهما تعاظم الظلم والاستبداد . وان ما جاءنا من امواج هذا التيار ومن نور هذا المصباح فمن روح الزمان جاء لا من ارباب العرش والتيجان . وقد تحررت الامة العثمانية الان وحبطت مساعي من حاول دفع هذا التيار العظيم واطفاء هذا المصباح الكريم . ومن المغالطات ان ظلم الحكومة الماضية واضطهادها الاحرار وضغطها على المطبوعات الخ تدعى كلها في خطاب العرش « السعي لنشر المعارف » فاذا كانت الصحافة لا تحتج على مثل هذا الادعاء والنواب لا يتحذرون من مثل هذا التمويه فحالتنا في نور الدستور والحرية لم تزل كما كانت في

ظلام الظلم والفساد .

اشرنا في بدء كلامنا الى ان النطق الشاهاني كتب بمؤازرة الوزراء او على الاقل بمؤازرة الصدر الاعظم وكل خبير في شؤون الحكومات الملكية يعلم بان خطاب الملك لايكون من قلم واحد ورأي واحد بل هو غالباً نتيجة جلسات عديدة ومفاوضات طويلة بين الحاكم ووزرائه . واذا فرضنا ان الملك يستقل في عمله هذا كما يفعل امبراطور المانيا مثلاً فلا بد ان يطلع على كلامه الوزير الاكبر قبل ان يلفظه فيغير وينقح فيه ليوافق الاحوال . وخطاب العرش الى مجلس نواب الامة العثمانية لايستثنى من هذه القاعدة . وفي الوزراء من هو من جمعية الاتحاد والترقي على ما نظن او فيهم على الاقل من اذا اصدر منشوراً باسم الجمعية يردفه بلفظة « المقدسة » فهل بدأت زعماء الاحزاب بالمجاملة والمخاتلة يا ترى . لا سمح الله . ولكن العبارة هذه اي « السعي في نشر المعارف » هي مقصودة لا شك والمقصود فيها ايها الاخوان التمويه والمواربة . وانصار جمعية الاتحاد والترقي في مجلس الوكلاء يعرفون ذلك ويغضون الطرف ساكتين . وما ضرهم لو اعطوا الان كل ذي فضل فضله . وتحروا الصدق في اول خطاب من خطب العرش لمجلس الامة . ما ضرهم لو اهملوا في الاقل ذكر امر لا يستطيع ان يوارب احد فيه دون ان يشعر بنفور في نفسه من نفسه اذا لم نقل باستياء الناس طراً .

ومجلس النواب لم يستحسن هذا التمويه على ما ظهر لنا . وكنا نود لو عبر عن استيائه بطريقة ايجابية لا سلبية . فقد انبأتنا البرقيات انه عند الفراغ من تلاوة الخطاب لبث النواب صامتين ولم يفه احد منهم بذلك الدعاء المعروف الذي طالما رددته الامة في الزمن الماضي . وهذا على ما نظن هو جواب النواب على مواربة العرش وتمويهاته . على اننا كنا نود لو فاه احد الاعضاء على الاثر بكلمة احتجاج وجيزة . ولكن اذا اظهر المجلس استياءه بطريقة سلبية فعلى الصحافة وهي خير صلة بين المجلس والامة ان تظهر ذلك بطريقة ايجابية . على الصحافة ان تبرهن الان على انها متنبهة متيقظة . وان من حقوقها ان تطالب المجلس والعرش بحقوق الامة . وان ترد الفضل في نشر المعارف والعلوم الى مكانه وذويه .



العفو العالي

جاء في الارادة السنية التي قرأها علي جواد باشكاتب المابين . في مجلس النواب ان « قد صدر العفو العالي عن العساكر الذين اجتمعوا في هذا النهار (يوم سقوط وزارة الاتحاديين) فلا يسألون عما فعلوا » وقد علمت الامة جمعاء ان من نتائج اجتماع بل هياج العساكر المتمردة قتل ناظر العدلية وعضو من اعضاء مجلس الامة . فما معنى العفو ياترى وماذا عسى ان يكون وراء هذا التسامح الشاهاني الجميل .

ان الاعتداء على احد النواب فضلاً عن قتله . يعد اعتداء على المجلس كله بل على الحرية والدستور بل على الامة باسرها . ولكن من يعفو عن انصار الجهل والتعصب اليوم وان عدوا بالالوف يعفو غداً عن انصار النور والحرية . اليس كذلك ؟ وان مراحم « جلالة مولانا » لأوسع من السماء . فاصدقاء الدستور واعداؤه — الاحرار والخونة كلهم — يقيمون في ظلها الظليل آمنين . أليس كذلك ؟

ولكن الريب خلة في بعض الناس . ولا غرو اذا وجد في المجلس من ارتاب بحسن نيات جلالة مولاه فقام يعترض على ما جاء في الارادة السنية فيما يختص باجتماع العساكر . يوم قتل ناظم باشا والامير محمد ارسلان . ولا فرق بين ان يصدر المرتابون

احتجاجهم من المجلس او من المكان المختبئين فيه . فان مجلس النواب في مثل هذه الايام هو حيث يجتمع او بالحري حيث يختبيء النواب .

ومن جميل اخلاق الشرقيين وبالاخص الاتراك ان الشدة وان انستهم واجباتهم المهمة لا تنسيهم فروض اللياقة والمجاملة . فقد قرأنا في صحف الاخبار رسالة تعزية من الرئيس الجديد للمجلس الى والد فقيد الوطن والحرية . ورسالة اخرى على شكلها من الصدر الاعظم فقلت وهل هذا ياترى اهم ماتوجبه عليهم الوطنية اليوم ؟ هل هذا ما يتطلبه منهم الدستور وتفرضه عليهم اليمين التي اقسموها ؟ انظل الى الابد عبيد المجامله والمصانعة . أبمثل هذه الدمعة الكاذبة تسر الامة ويتعزى آل الفقيد ؟ اما كان الاجدر بالنواب ان يبعثوا الى المابين كلمة احتجاج على ما جاء في الارادة السنية ؟ فالمثل — ان العفو من شيم الكرام — لا يصح دائماً

غداً يهيج الجنود ثانية فيقتلون آخر من النواب فتصدر الارادة السنية بالعفو عن القاتلين . و كلما قتل احد اعضاء المجلس يفر هارباً من يخاف على جلده ولا يخاف على شرفه ويمينه . فلا يمضي والحال هذه شهر واحد حتى تخلو كراسي النواب كلها فينعب فوقها ثانية غراب التقهقر والظلم . ويقهقه تحتها شيطان المكر والخيانة . أبمثل هؤلاء النواب تنتصر الحرية ويتعزز الدستور ؟

في عهد لويس السادس عشر قبل انفجار بركان الثورة بسنة

واحدة رفض البرلمان في باريس ان يصدق على قرض اقترحه ناظر المالية سدّاً لعوز الملك والحكومة . فجاء في اليوم التالي لويس بذاته وامر البرلمان ان يصدق على هذا القرض فأبى ثانية وقام دِسبرِيمْنيل فاغلظ الكلام لجلالته وصرح بحقوق البرلمان على الحكومة . فخرج الملك ووزيره محتدمين غيظاً وبعد ايام جاء الضابط داغوست ومعه فريق من الجند وبيده امر بالقاء القبض على دِسبرِيمْنيل فدخل المجلس وقال : جئت بامر الملك . فقابله الاعضاء ساكتين واجمين ثم قال : وبما انني لا اعرف احدكم دسبريمنيل اطلب اليه ان يقف لان بيدي امراً ... فقاطعه الاعضاء قائلين : كلنا هذا الرجل . ولم يقف منهم احد . فخرج داغوست وجنوده يومئذ مثلما خرج مولاه ووزير مولاه في اليوم السابق .

فان كانت هذه وطنيتهم بل هذه حماستهم وجرأتهم في امر يعد طفيفاً فماذا يا ترى يفعلون لو قتل الجنود احد اخوانهم على باب المجلس ؟ ايسمعون العفو عن القاتلين ساكتين ؟ ايكتفون بتعزية اقاربه ويؤجلون البر بيمينهم الى ان يزول الخطر ؟ أتمتهن حرمة الدستور وكرامة مجلس الامة . ايعتدى على الحرية وانصارها . ايهرق دم النواب على باب مجلس النواب ظلماً وعدواناً فيفر الجبناء من الاعضاء هاربين ويظل الباقون منهم ساكتين ؟ اليس الاعتداء على احدهم اعتداء عليهم اجمعين .

امر لويس السادس عشر بنفي دسبريمنيل احد اعضاء البرلمان فاجابه البرلمان بصوت حي : كلنا هـذا الرجل . غمست حراب فريق من العسكر بدم الامـير محمد ارسلان فعفا السلطان عن الجانين وسكت النواب عن عفو السلطان . وكاني بهم يشكرون الله على سلامة دمائهم الكريمة ! وهـذا ايها الاخوان الفرق بين الشرقيين اليوم والغربيين في مجالسهم النيابية وتجاه ملوكهم .

ان الحراب التي صرعت الامير محمد ارسلان حاولت صرع الحرية والدستور . بل هي حراب اشربت سم الخيانـة من اعلى مورد في الحكومة . فاذكروا هذا ايها الناس ولا تنسوه ايهـا النواب .



الحرية وحدها لا توحدنا

اني ممن يقولون بالطريقة البطيئة الثابتة في اصلاح الامم والناس . اني ممن يرتأون ان لا خلاص للشعوب من الجهل والجمود والخمول الا بالتهذيب والتربية . وما الثورة عندي سوى امثولة صغيرة في تهذيب النفس وتثقيف الاخلاق . لاننا اذا تعلمنا ان نثور على المستبدين والظالمين من اسيادنا نتعلم ان نثور حتى على انفسنا متى كنا من هؤلاء الظالمين والمستبدين . وهذا لعمري اهم من ذاك . ولكننا لا نحسن نحن السوريين لا هذا ولا ذاك . نحن قوم تعددت في بلادنا المدارس الاجنبية وكثر فينا التقليد والادعاء . كنا بالامس في مقدمة الشعوب بالخنوع للضيم والاستسلام للهوان . وصرنا اليوم في مقدمة طائفة من الناس لا يحركون في سبيل الامة سوى القصبة واللسان .

ومتى كثر في الامة المرشدون والناصحون المتربعون بدست السيادة فبشّر تلك الامة بالهلاك . بدل ان تنصحني ساعدني . بدل ان ترشدني سر امامي . اذ ما الفرق ياترى بين منافق يناهض حاكماً مستبداً ولص ينـدد باللصوص والقتلة ؟ ما الفرق يا ترى بين متعصب يقول ما اجملك وما اسماك ايتها الحرية وشيطان يتغنى بمدح الملائكة ؟ ان الاثنين عندي سواء .

على انني اجد بوناً شاسعاً بين عالم لا يعلم ان العلم انما وجد

لنفع الناس لا لاثارة الفتن في الناس . ورجل عاش جاهلاً ومات جاهلاً وكان من آل الفضل في الناس . واني والله لافضل هذا الجاهل الصادق على ذاك العالم المنافق . اني لأوثر النفس الصافية الساذجة على نفس متفقهة لا تعرف من سبل الحياة الا تلك الموحلة المظلمة ولا من اماني الحياة الا تلك التي يجبل بها دود الارض وتتغذى بسم الافاعى . اجل ياأخي ان جمالاً صالحاً او اسكافاً حراً صادقاً لخير من الامراء والرؤساء والعلماء الذين لا يعرفون من الحق والعدل ومن الخير والاحسان ومن الاخلاص والفضل الا اسماءها .

اننا اليوم الى التهذيب لاحوج منا الى السكك الحديدية والتلفونات . ان حاجتنا الى العلم الصحيح الذي يهذب الانفس ويرقي العقول ويثقف الاخلاق لاشد منها الى العلوم اللغوية والفقهية واللاهوتية والخنفشارية . والتهذيب الصحيح ينبغي ان يعم عناصر الامة باسرها على السواء ليأتي بفائدة تذكر للامة . وعندي ان اشد الويل والبلاء انما هو في بيت يعيش تحت سقفه الجاهل والعالم معاً . ان هذا البيت وطننا ايها الاخوان . وعناصر الامة فيه كافراد تنافرت اذواقهم واخلاقهم وتعددت صبغاتهم القومية والدينية وتباينت فيهم درجات المدارك والعلوم . فاذا ارتقى عنصر من عناصر الامة دون سواه يلتجيء غالباً الى المهاجرة اذا ظلت العناصر المنحطة واقفة في طريق ترقيه كالسد في وجه

المياه • اما الاية • ورب فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة • فالتاريخ لا يشهد على صحتها الا مرة في الالف • لان الطبيعة لا تسمح ان تكون المعجزات فيها مبتذلة . والغالب المبتذل هو ان الاكثرية ان كانت في المجالس النيابية او في الطبيعة تتغلب على الاقلية •

على حكومتنا الدستورية اذاً ان تنتبه الى هذا الامر الخطير ان كانت ترجو ان ترتقي الامة وتحيا . على حكومتنا ان تباشر تأسيس المدارس الوطنيـــة العمومية الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية . وان كانت لا تباشر قريباً فلا ترجو يا اخا الحماسة كبير خير من هذا الانقلاب . ومن هذا الدستور . ومن هذا المجلس النيابي .

اظنك تعلم ايها القارىء العزيز ان لا غاية لي من الكتابة والخطابة والتأليف سوى نشر المبادىء الحرة والتعاليم السديدة في الامة . وان من تجرد عن المآرب السياسية وعن الاغراض الشخصية المادية يرسل كلمته في الناس دون ان يراعي خاطر احد من الناس . منذ خمس سنوات عدت الى وطني من العالم الجديد وحتى الآن ما عرفت من الرؤساء المدنيـين والدينيين الا من احب ان يعرفني او من جمعتني به التقادير . قضيت هذه المدة كلها بعيداً عن الرئاسة والسياسة فبان لي ان في طاقـة الانسان ا ن يعيش سعيداً دون ان يتزلف من السياسيين والامراء او عمال الحكومة والرؤساء . نعم عشت محروماً هـذا الشرف العظيم

فكانت همومي الادبية ومتاعبي السياسية اقل من هموم سواي من الادباء .

عسى ان يعذر القراء مني هذه الكلمة الشخصية . فما قلتها الا لابني عليها قاعدة عمومية هي جديرة باعتبار كل من زاول صناعة الكتابة واحب ان ينفع الناس بعلمه وادبه . ان التقرب من العظام وبالاخص اصحاب السيادة منهم يفقد الكاتب غالباً مزية الحرية والاستقلال . هذه هي القاعدة العمومية التي قلت من اجلها كلمتي الشخصية . تكلمت عن نفسي وما كنت لافعل ذلك في غير هذه الاحوال لاؤكد لكم ايها الاخوان ان الاراء التي أبديها والمبادئ التي انادي بها انما هي ثمرة علم لا يعرف التفرقة والتحزب ولا يفرق بين الجنسيات والاديان .

احب ان اردد بعد هذا التمهيد كلمتي السابقة عن المدارس الوطنية واردفها بكلمة ليست باقل منها اهمية وهي « صيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح تذهب غداً بالاوتاد » ان الامة العثمانية لا تصير حقاً امة واحدة متحدة راقية الا اذا تأسست في البلاد المدارس الوطنية العثمانية المجانية الاجبارية وتلقن فيها العلوم ابناء المسلمين وابناء الدهريين وابناء المسيحيين وابناء اليهود معاً . بقي عليّ ان اقول كلمتي الاخرى . اننا لا نصير امة راقية حرة بكل معنى الكلمتين الا متى صار ادباء المسيحيين وادباء المسلمين يتباحثون في اي موضوع دينياً كان او سياسياً

او اجتماعياً دون ان يثير ذلك في شعب الملتين غبار الجهل وسموم التعصب . بل اذا كان لا يحق للمسلم ان ينتقد المسيحيين في شؤونهم العمومية والاجتماعية ولا للمسيحي ان ينتقد المسلمين فلسنا والله بامة واحدة وليس وطننا بذاك الوطن المجيد الجامع الذي يعبد في هيكله كل ابنائه على اختلاف المذاهب والعناصر والجنسيات . بل اذا كنا لا نتجرد عن صبغاتنا الدينية في شؤوننا الوطنية والاجتماعية فحريتنا ايها الناس كلمة مقولة . واخاؤنا لفظة غير معقولة . والمساواة عندنا قاعدة باطلة مرذولة .

نعم يا سيدي . اذا كان اخواننا المسلمون لا يساعدوننا في نشر التعاليم الحرة في الامة . اذا كانوا لا يؤيدون قولاً وفعلاً اراء اباء الحرية والدستور . اذا كانوا لا يرددون صدى احرار المغرب وعلمائه ومن ينحو اليوم في الشرق نحوهم من الاحرار الاصفياء والعلماء فعبثاً يحاول ابطال الدستور والحرية تجديد حياة الامة والمسلمون العنصر الاساسي في الامة . واما انتصار الجيش فلا مجد عظيم فيه ان لم يتبعه انتصار في العلم والتهذيب . لان الجيش وان دمر معاقل الحكومة الاستبدادية فنصره لا يزيل الجهل الذي أسست عليه تلك الحكومة . وما دام الجهل سائداً في الامة . سيان عندي ان كانت الحكومة فردية استبدادية او حرة نيابية . ان لم تباشر الحكومة في تدمير حصون الجهل اذاً يعود الجهل فيدمر حصون الحكومة . ولا يتم لها ذلك الا في

تأسيس المدارس العمومية الوطنية مجردة عن كل صبغة دينية حيث اولاد المسلمين والمسيحيين واليهود والدهريين يتلقنون كلهم العلوم على استاذ مدني واحد وتحت سقف واحد ومن كتاب واحد وعلى طريقة وطنية واحدة . وما هذه ببدعة انادي بها . فان مكتب الصناعة في هذه المدينة أسس على هذه الطريقة الوطنية وحبذا لو احيته اليوم الحكومة فيكون مثالاً للمدارس العثمانية العمومية الاجبارية . وعبثاً نحاول توحيد العناصر المتعددة في الامة اذا كان التعليم لا يوحد على هذه الطريقة الوطنية الجامعة الحرة .

جلست مرة في قهوة من البحر اتفرج على الناس يسبحون . تأملتهم في تلك الحالة الطبيعية وقد تجردوا عما يميز بعضهم عن بعض وقلت في نفسي : اين المسلم الآن واين اليهودي واين الكافر واين المسيحي ؟ رأيتهم يسبحون كلهم في بحر واحد تحت سماء واحدة وهم لا يستنكفون من امواج تلعب حول قلوبهم كانها قلب واحد وتغسل اجسامهم كانها كلها جسم واحد . فقلت في نفسي متى ياترى تصير عقولنا مرنة نشيطة قوية كاجسامنا ؟ متى تصير انفسنا كامواج هذا البحر فلا تخضع الا لناموس واحد هو ناموس الله ؟ او في الاقل متى تصير متساهلة كابداننا فتسبح في بحر الاداب الواحد وتحت سماء العلوم الواحدة دون تنافر ودون شقاق !

نظرت الى البحر وانا جالس في تلك القهوة فرأيت هنالك

المدرعات الحربيـــة الاوروبيـــة ومنها المدرعتان الافرنسيتان « لافريته » و « فكتور هوغو » فكرهت الاقامة في بلاد لم تزل تحتاج فيها الى مثل هذه المظاهر الكاذبة . وهل كنا نشاهد المدرعات الاوروبية بصفـة رسمية في بحرنا لو تأسست عنـدنا المدارس العمومية الوطنية منذ ثلاثين سنة ؟ هل كانت تلطخ المذابح تاريخنا فتلحق بنا وبوطننا العار والشنار لو وجد منـذ ثلاثين سنة التعليم فنمت في قلوب العثمانيين عاطفة وطنية شاملة وانتشر روح التساهل الديني في الامة ؟

لا يا اخوتي . انا لا احب ان ارى هذه المدرعات على شطوط بلادنا . انا لا احب ان يلتجيء احد عناصر الامة الى دولة اوروبية انا لا احب ان ارى « فكتور هوغو » في بحر بيروت بل احب ان اشاهد روح فكتور هوغو متجلية في ارواح ابناء بيروت . لا احب ان ارى « الحقيقة » على شواطيء سوريا بـل احب ان اراها في قلوب ابناء سوريا . احب ان تحمينا المبادىء السديدة لا المدافع والمدرعات . احب ان يحمينا العلم الخالص من الغش . والوطنية المجردة من كل مصلحة دينية



رجل الشعب

قد مضت السنة الاولى من عهد الدستور وما ولدت حرية اللبنانيين الا الكلام . وماذا ياترى يلد الكلام وبالاخص ما كان كاذباً فاسداً مبرقشاً من الكلام ؟ قد انقضت السنة الاولى من عهدنا الجديد ولم يظهر فينا رجل جريء حر صادق . رجل عزوم ثبيت سكوت يعمل من اجل هذا الوطن عملاً واحداً صغيراً دون ان يستشير فيه كيسه او منصبه السياسي . دون ان يلتجيء الى القناصل . دون ان يستعين ببكركي التي اصبح هيكلها في جمعية الاتحاد والترقي في بيروت . بكركي وبطريركها اليوم فيلسوف تركي يحسن العبادة والصلاة مثلما يحسن العدل في السياسة والاحكام . ولكن هؤلاء اللبنانيين الذين يسجدون لشفيعتهم وهي في زي تركي اوروبي جديد وينادون في الجبل بالمحافظة على امتيازات لبنان هؤلاء يجدفون في قلوبهم اذا صلوا ويموهون وينافقون حيثما سقطوا وحلوا . هؤلاء لا يستحقون بركتك ياصديقي البطريرك . هؤلاء قوم مدغلون . والمدغل والمؤمن لا يجتمعان .

وما قولك ايها الرفيق العزيز ! اتظننا نجد رجل الشعب بينهم ؟ اتظن البحث عنه في هذا المكان يجدينا نفعاً ؟ ألا تظننا نصرف زيتنا سدى في مثل هذه الظلمات ؟ احمل سراجك اذاً واتبعني .

من هيكل الحرية العثماني الى الهيكل اللبناني فرسخ او فرسخان. تعال اذًا علّنا نفوزهنا بضالتنا المنشودة . ادخل وسرح نظرك في هذا المعبد الجليل الذي شيده قبل الدستور البناءون . وهؤلاء البناؤن لا يتعشقون الاكليروس كما تعلم على انهم لا يكرهون الثوب الكهنوتي الذي يلبسونه في دور الرئاسة دائمًا وفي دور السياسة عند مسيس الحاجة . هؤلاء الاحرار الكرام وفيهم من الشبان العالم والمصلح والحكيم وفيهم ايضاً من يحتاجون الى كثير من العلم والاصلاح والحكمة يعبدون الحرية فوق كل شيء ويفادون اليوم وغدًا بكل لبنان من اجلها . فان كان فيهم من يستحق ان يكون زعيم الشعب الا تظنه يلبس الارجوان ويغطي اذنيه بقلنسوة من حرير اذا تبوأ غدًا كرسي الزعامة. دعنا من المجاز . الا تظنه وان كان رجل الشعب اسماً يكون فعلاً رجل البنائين ؟ هل انت من رأبنا . او لا تثق بهؤلاء الشبان المصلحين ؟ تعالَ اذًا نطلب رجل الشعب بين شيوخ لبنان واعيانه

نحن الان في كنيسة الجامعة اللبنانية وفيها هيكل كبير فى الصدر لشفيعهم « مار نظام » له المجد . وهيكلان صغيران الى جانبيه للحرية والاخاء . وما قولك بهذا المجمع الجامع اللامع . هؤلاء هم اسيادنا اللبنانيون الصادقون . هؤلاء هم الوطنيون الطاهرون الذين يبيعون املاكهم كلها ليحافظوا ان اقتضى الامر على امتيازات لبنان . هؤلاء هم الابطال الذين يشترون النظام

الجليل الثمين بدمائهم ودماء اولادهم ونسائهم . ايريبك قولنا ؟ الا ترى فيهم الامير والشيخ والوجيه والصحافي والكاهن و « الكرخنجي » ؟ ومن من هؤلاء لا يبذل النفس والنفيس من اجل « مار نظام » العزيز ؟ من منهم لا يحمل « المارتيني » اذا اقتضى الامر دفاعاً عن وطنه وحباً بامتيازات وطنه ؟ الا تظن هذا « الكرخنجي » يصلح ان يكون رجل الشعب وهو اقرب الناس الى الشعب واعرفهم به واكثرهم انصافاً له ؟ او لا تظن ان هذا الحبر المفضال وهو اشدهم شغفاً بحب الشعب الذي بظن الربقة في رأسه طوقاً مقدساً من سيدة حريصة .... او هذا الامير ....

ما بالك تضحك ؟ الا ترى رجل الشعب بين هؤلاء الاسياد الغطاريف ؟ اتظنهم كلهم مثل اخوانهم الذين يعبدون سيدة بكركي في هيكل الاتحاد والترقي ؟ — اتبعني اذاً .

هذي هي سراي الحكومة . اتريد ان تدخل ؟ اتقول لا ؟ وانا من رأيك . لماذا نضيع وقتنا وزيتنا سدى ؟ اشعل السراج اذاً وتقدم .

أتخيفك هذه الظلمات . نحن الان في قرى لبنان وقد خيم الليل والسكوت . اما هذا النور الضئيل الذي تشاهده في كل قرية فهو نور الجمعيات التي تضم اليها اليوم كل من استفاق مؤخراً من نومه وشفي قليلاً من مرضه . فهل تظننا نجد رجل الشعب فيها واعضاؤها على الحالة التي وصفناها ؟ امش اذاً ولا

تيأس . قد يكون رجل الشعب في حقوي هذا الفلاح صاحب العباءة المرقعة . وقد يكون كامناً في احشاء تلك الفلاحة التي سلمت علينا . تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة . وتبارك من يعرفها ويكرمها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس .

الوداع ايها الرفيق فقد صرفنا بعض الوقت والزيت في البحث عن رجل الشعب ولم نصرفه باطلاً .

اما الان فقد مضى العام على عهد الحرية عندنا واللبنانيون يجتمعون ويخطبون ويتباحثون ويتشاكون وينادون — بماذا ? بلا شيء . ويندددون ويؤلفون الجمعيات والاحزاب والوفود . ويحلون العقد والمشكلات بالتمويه والمسايرة والوعود .

مضى عام على حريتنا ولم يمض معه شيء من خمولنا ومصانعاتنا ورخائنا . ومن شقاقنا وادعائنا وعبوديتنا . مضى العام الاول على الدستور واسيادنا الاحرار هم اسيادنا بالامس والشعب هو ذات الشعب المفلوج الضرير الذي قضى حياته في ظلمات الجهل والعذاب .

الشعب المفلوج الضرير ماذا تنفعه الحرية والنفس فيه صماء . الشعب الضرير المفلوج ماذا يفيده قولك له « انا من الشعب انا رجل الشعب » . ان كنت من الشعب ياهذا فاسفي عليك . ان نفسك مفلوجة ضريرة . وان كنت رجل الشعب فبربك قل لنا كيف تعالج الفالج وكيف تداوي العماء . فان كان عندك دواء نافع فهاته . هاته باسم الله . داو هذا الشعب بل هذه الامة . داوها

شاءت او لم تشاء . داوها وان اضطرك ذلـك الى تقييدها ليلة ونهاراً او سنة وسنتين لتشفى . داوها بالسيف ان كنت تتأكد انها بالسيف تبرأ .

ان كنت رجل الشعب ايها الزعيم المحبوب . ان كنت واثقاً ان العناية الالهية اختصتك لتكون طبيب هذه الامة فلا تنتظر من الصحافة شهادتها ولا من الحكومة فرمانها . ولا تنتظر ريثما الناس يسمونك ويرشحونك وينتخبونك — وبعد ذلك يرذلونك . .

ولكن قبل ان تنادي : « دواء للفالج دواء للعين » أرني ان شئت ما في خرجك . ما هـذه المراهم والنباتات ? أليست التي يتاجر بها « المغربي » ذاك الذي درس الطب ثلاثين سنة في مغارة دانيال ?

ألا تعرف « المغربي » ? أما رأيته في زمانك راكباً كديشه وصيدليته في الخرج وراءه ? أما سمعته ينادي : دواء للراس دواء للعين ! ان اعشابك من اعشابه ايها الزعيم العزيز ومراهمك هي نفس مراهمه . فالأصلح لك وللامة اذاً ان تبيع كديشك وترجع الى بيتك .

تبغ وملح للفالج والعماء ! سبحان الهادي . أتظن يا زعيمي المحنك المبنك ان زرع التبغ واستخراج الملح يشفيان فالج النفس وعماءها ? أتظن ان التبغ والملح يستحيلان نوراً وهداية

في قلوب اللبنانيين ؟ أتظن ان المال في صندوق الحكومة يصلح الشؤون اذا لم يكن في الحكومة من يعرف كيف يستخدم المال لخير الامة الادبي الروحي قبل خيرها المادي ؟ رح في سبيلك ايها المداوي اللاوي وقبل ان تكرهنا او تنسانا اذكر منا هذه الكلمة : خير لك ان تكون حمالاً او سكافاً من ان تكون مشعوذاً .

ان بلاءنا ايها الاخوان من (مغاربة) السياسة الذين درسوا المداواة ثلاثين سنة في مغارة دانيال وخانيال ونافقيال وشركاوهم . ان بلاءنا من المصلحين الذين لا يصلحون انفسهم . ان بلاءنا من المشعوذين المدغلين الذين يسجدون في الهيكل التركي لسيدة بكركي . بلاء الشعب من اسياده الذين لم يزالوا يسخرونه ويرهقونه . بلاء الشعب من الذين اورثوا الشعب الفالج والعماء وجاءوا اليوم يتحببون اليه ليداووه : دواء للفالج دواء للعين ! ورب السموات ان كنت لا تطرد « المغربي » من بيتك يا اخي وترمي باعشابه الى النار تموت ولا شك مفلوجاً ضريراً .

من المبكيات المضحكات ان تسمع اليوم من يتساءلون : ومن ياترى يستحق ان يخلف رجل الشعب ؟ هنيئاً لك يارجل الشعب . فقد ارتحت في الاقل من المناداة : دوا للفالج دوا للعين ! ومن دانيال وخانيال ونافقيال الذين لا يريدون ان تداوي شعبك بغير المراهم الفاسدة والاعشاب السامة .

لا ياأصحابي لا ياأسيادي . ان رجـل الشعب الحقيقي لا ينتخب ولا يعزل ولا يقاوم ولا يموت . ان روحه تظل حيـة وعاملة في الامة بعد ان يقف نبضان قلبه . ان اعماله لا تموت اذا غرست في قلب شعب حي قوي . اعصابه سليمة ونظره سليم . ان اعمال الرجل العظيم كنهر يتدفق من اعالي الجبال في اودية الهيئة الاجتماعية وسهولها . ولا يكاد يجف ماؤه او ينضب بعد سنتين او بعد عصور طوال حتى يبعث الله رجـلاً اخر عظيماً فيحيي فيه الارواح التي تلاشت على ضفتي النهر الابدي . اليس من المضحكات اذاً ان نتساءل : ومن ياترى يخلف رجل الشعب وهل تظن ان الزعيم الثبيت الحر الصادق كمقالة اكتبها بساعة او بيوم فتقرأها وتفهمها بخمس دقائق ? ألا يخطر في بالك ان لو كان صنع الرجال العظام امراً سهلاً لكان يلد في العالم رجل عظيم كل يوم ? أتظن ان ارادتي وارادتك وارادة من هم اكبر مني ومنك . قناصل كانوا او بطاركة . بل ارادة الملوك والسلاطين تجعل « المغربي » حكيماً والمشعوذ زعيماً ? أتظن ان في امكان الاحزاب ان تصنع الزعماء كما يصنع الخزاف اناء ثميناً او الصيقلي درعاً متينة اذا كنت تعتقد هذا الاعتقاد ولا تنبذه سريعاً نبذ النواة فمسيرك ومسير اتباعك وعبيدك الى الهلاك . اذا كنت لا تصرع اعتقادك الفاسد ياأخي فاعتقادك يصرعك . اذا كنت تظن ياصاحب السعادة بل ياصاحب الدولة بل ياصاحب الجلالة ان زعيم الناس

كاناء من الفخار تصنعه كالفخاري بساعة واحدة وتكسره ان شئت بضربة واحدة فانت اما مخطىء واهم واما جاهل مكابر . وفي كلا الحالين لا خير فيك لوطنك او لنفسك لا في اقوالك ولا في اعمالك . الزعيم الحقيقي يامولاي هو من السماء ونصره وكسره في يد الله . ينبغي لك اذًا ان تصلح عقيدتك قبل ان ترفع في سبيل الاصلاح عقيرتك . ينبغي لك ان تبيع كديشك وترمي بخرجك وعقاقيرك الى النار وتقرأ في كتاب الحكمة والزعامة على عالميال وصادقيال لا على ماكريال ونافقيال .

ان لبنان اليوم لفي حاجة الى بطل حقيقي لا الى رجل او نصف رجل او ربع رجل او لا رجل يدعى زعيماً . نحن في حاجة الى من يستطيع ان يجمع شتات هذا المليون من ضعفاء بل من بؤساء البشر . نحن في حاجة الى بطل يحكم هذه الامة ويهديها سواء السبيل . وهل تظن ان الطبيعة في لبنان تضن على ابنائه بمثل واشنطون او ابي بكر او كرمول ولو في شكل صغير ؟ يشهد تاريخنا انها لم تضن علينا بالابطال في الماضي . وتشهد سماؤنا وتشهد شمسنا انها لا تضن بهم في المستقبل .

وعندنا ان مثل هذا الزعيم العظيم يباشر اصلاح الجيش فيضاعفه وينظمه قبل كل شيء . ثم ينظر الى الشعب المفلوج الضرير فيداويه بغير زرع التبغ واستخراج الملح وتأليف الجمعيات في القرى . لا ننكر ان هذه كلها لازمة مفيدة . ولكن الالزم

اهم . وعلى الالزم تتوقف اليوم حياتنا . ان ابا بكرنا ياسيدي الامير لا يصيح كالمغاربة : دواء للفالج دواء للعين . لكنه يقبض المبضع بيد من حديد ويشتغل باسم الله. ان واشنطوننا بعد ان ينظم جيشه ينظر في البلاد الى من كثرت اموالهم وقلت اعمالهم كالرهبان مثلاً فيحاسبهم بعدل وانصاف ويبني بما يأخذه منهم المدارس العمومية في كل القرى . والمدارس الزراعية الصناعية في كل الاقضية . هذا هو دواء الطبيب الصادق الماهر لفالج النفس وعمائها .

مثل هذا الرجل اذا دخل مجلس الادارة ورأى الاعضاء يدخنون الاركيلة وينعسون يطردهم قائلاً : « الى بيوتكم . دخنوا هناك وناموا الى الابد . واذا كان اللبنانيون لا ينتخبون من لا يدخن ساعة العمل وينام فانا انتخبه انا اعينه . واذا رأيته يدخن بعد ذلك في المجلس اكسر والله الاركيلة على رأسه »

بمثل هذه اللهجة كان كرمول يكلم مجلس نواب الانكليز . ولما رأى ذات يوم ان قد استفحل امرهم معه اخرج ساعته من جيبه ورمى بها الى الارض قائلاً : « ان لم تستقيموا احطمكم مثل هذه الساعة » وبعدئذ طردهم وقال « اريد في المجلس اناساً صادقين عادلين » .

مثل هذا الزعيم اذا تصدى له اولئك الافاضل المحنكون المبنكون الذين ترسلهم الدول الاوروبية ليتعلموا عندنا السياسة

نعم ياخوتي نعم يااسيادي . اني اؤكد انالسماوات والارض في لبنان لا تضن علينا ببطل لبناني في المستقبل . ولكن متى يظهر واين . . ؟ ان نبوءتي لا تتجاوز هذا الحد .

والسلام عليك ياابنة لبنان .

تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة . تباركت في احشائك جرثومة الابطال . وتبارك من يراهاويعرفهاويمجدها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس .



الشعر المنثور

يدعى هذا النوع من الشعر الجديد Vers libres بالافرنسية وبالانكليزية Free verse اي الشعر الحر او بالحري المطلق وهو آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الاميركيين والانكليز . فملتن وشكسبير اطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وتمن Walt Witman الاميركي اطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابحرة العرفية . على ان لهذا الشعر المطلق وزناً جديداً مخصوصاً وقد تجيء القصيدة فيه من ابحر عديدة متنوعة .

وولت وتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها . وقد انضم تحت لوائه بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين . وفي الولايات المتحدة اليوم جمعيات «وتمنية» ينضم اليها فريق كبير من الادباء المغالين بمحاسن شعره الجليلة المتخلقين باخلاقه الدمقراطية المتشيعين لفلسفته الاميركية . اذ ان شعره لاتنحصر مزاياه بقالبه الغريب الجديد فقط بل فيه من الفلسفة والتصور ماهو اغرب واجد

الثورة

ويومها القطوب العصيب . وليلها المنير العجيب
ونجمها الافل يحدج بعينه الرقيب .
وصوت فوضاهـا الرهيب . من هتاف ولجب ونحيب . وزئير
وعندلة ونعيب
وطغاة الزمان يسامون نارا . واخياره يحملون الصليب .
ويل يومئذ للظالمين . للمستكبرين والمفسدين .
هو يوم من السنين .بل ساعة من يوم الدين
ويلٌ يومئذ للظالمين .

* * *

هي الثورة ويومها العبوس الرهيب .
الوية كالشقيق تموج . تثير البعيد . تنير القريب
وطبول تردد صدى نشيد عجيب .
وابواق تنادي كل سميع مجيب .
وشرر عيون القوم يرمي باللهيب .
ونار تسأل هل من مزيد . وسيف يجيب . وهول يشيب .
ويل يومئذ للظالمين . ويل لهم من كل مريد مهين
طلاب للحق عنيد مدين . ويلٌ للمستعزين والمستأمنين .
هي ساعة للظالمين .

هي الثورة وابناؤها الحفاة . وصبيانها المسترجلون العتاة .
ورجالها الاشداء الاباة . ونسائها المتنمرات .
وخطباؤها وخطيباتها الفصيحات . وزعماؤها وزعيماتها المتمردات
ويلٌ يومئذٍ للظالمين .
انذرهم باغلال وسعير . بقنابل تفجر ويوم عسير .
يوم لا ينهون ولا يأمرون . ولا يطلقون فيهربون
ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

الم يأتهم حديث الرومان .
يوم شغف قيصر (١) بالارجوان . ومد يده الى الصولجان .
فاذا هو صريع احرار ذالك الزمان . قتيل مهان كثير الطعان .
ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

الم نقص عليهم قصص باريس .
يوم دك البستيل وزفت المحابيس . يوم قطع رأس الملك لويس . (٢)
وحزت رقاب كبار الفرنسيس . وفرّ الطاغون من هول باريس .
ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

(١) يريد يوليوس قيصر وروايته مشهورة (٢) لويس السادس عشر

ونبأ الانكليز .

يوم بايع القوم بياع الجمة [1] وقالوا هذا ولي عزيز .

يوم نادى الخمار بالناس والملك في حرز حريز .

فاذا بالمستضعفين اشداء وشارل المليك ذليل نبيذ . بل على المشنقة يستعيذ

ويل يومئذ للظالمين . من كل متنمر متمرد مدين .

ويل يومئذ للمفسدين . من نصر البنود الحمر المبين .

* * *

ونبأ العالم الجديد .

الم يروا لهيب الاتون في العالم الجديد . حيث يطرح كل جائر مريد

حيث يحرق الارجوان وتذوب تيجان الحديد .

حيث تحرر العبيد . ويموت الناس من اجل هولاء السود المناكيد

حيث قام الاذل على الاعز . والوضيع على الجبار العنيد .

ويل يومئذ للظالمين . يوم يمتع الله المستعبدين .

ويطلق في الشعوب سلطان روح كمين . بل يضرم من ناره البراكين

بل يثير في الجموع روح الامين . روح كل زعيم صادق امين .

يوم ليرث المظلوم سيف الظالم الاثيم .

ويذيق المفسدين حرّ عذاب اليم . في هذه الارض لا في الجحيم .

ويل يومئذ للظالمين . من كل متنمر متمرد مدين .

ويل يومئذ للمفسدين . من نصر البنود الحمر المبين .

(١) كرومويل وهو زعيم الثورة الانكليزية التي انتهت بقتل شارل الاول

ريح سموم

وبربك القيوم . ما الذي تظنه يدوم ؟
صوت سمعته في الكروم . وقد مرت عليها ريح سموم . فجفت
الارض وعادت جزرة كثيرة الكلوم .
سقطت الجفان عن فسائلها وفزعت اوراقها الى الغيوم .
صوت صارخ في صفوف النجوم . ما الذى تظنه يدوم ؟

* * *

من صروح زاهية فخيمة . من رياض زاهرة كريمة . من بروج
شاهقة عظيمة . من معامل حديثة او قديمة . ما الذي
تظنه يدوم ؟
من انفاق منورة تحت الانهار . من ارتال فيها يدفعها الكهرباء
او يجرها البخار . من بوارج ماخرات في البحار . من
اساطيل تنذر بالدمار . من معالم ومعاهد في الامصار .
ما الذي تظنه يدوم ؟
من انفاق تحت الاديم ملؤها عجاجه . تنفثها وتثيرها القطر
الولاجة . من قباب بين السحاب وهاجة . ما الذي
تظنه يدوم ؟
من جسور فوق المياه جسيمة . من جزائر على المياه عظيمة . من

جبال تحت المياه قديمة . ما الذي تظنه يدوم ؟
من سدود محكمة منيعة . من خلج كونتها الطبيعة . من ترع
تؤلف بين البحار . وتجمع بين بعيد الاقطار والامصار .
من خطوط حديدية تطوق الارض . من اسلاك برقية
تطوي المسافات في الطول والعرض . ما الذي تظنه يدوم ؟
من ابنية ذات الطبقات العشرين . من احياء في المدن الكبرى
يأوي اليها جموع البائسين . من معابد وبيع لا اثر فيها
للدين . من اصقاع لا صوت فيها للاحرار الصالحين .
ما الذي تظنه يدوم ؟
من قصور مكتنفة برياض خضراء . من صروح الملوك والامراء .
من دور الرؤساء والاغنياء . من اكواخ البؤساء
والفقراء . ما الذي تظنه يدوم ؟
من شرائع ودساتير ونظامات . من تقاليد وعادات وخرافات .
من اديان وعقائد وخزعبلات . من دول وممالك
وحكومات . من احزاب وطوائف وجماعات . ما
الذي تظنه يدوم ؟
صوت صارخ من وراء الغيوم . صوت ريح سموم . اي شيء
يدوم ؟
مهلاً مهلاً . انها كلها صالحة في ذاتها . انها كلها حسنة في وقتها .
لكل شيء من العز والمجد اركان . لكل شيء من ابناء البطر

والاشر اعوان . لكل شيء برهة من دهره الوسنان
ساعة او عام او قرن من الزمان . الطويل من الدهر في عين الازل
والقصير سيان .
فلا تظنها الى الابد تدوم . لا وربك القيوم . مبدع الشمس
والنجوم .

* * *

الى حين يااخي الى حين . كل ما في العالمين . اي ورب العالمين .
الى حين . وبعد فقل لي هل انت من الممترين . هل
انت من القائلين السائلين . وبعد ذلك وبعد حين ؟
أما في زمانك تأملت المغاور في الصخور . فاذكر ان الامطار
والرياح تكونها . والامطار والرياح تهدمها .
ان كل ما هو محترم معبود . من اضاليل الزمان والجدود . يظل
في حرز حريز الى ان يظهر في الناس رجل عظيم عزيز .
بطل تجود به الايام . فيصرخ في وجه الائمة والحكام . صرخة ترددها
البحار والآكام . وهو قائم على المظالم البشرية . مناضل
عن الحقيقة والحرية . باذل مهجته في سبيل الانسانية .
اجل ان كل شيء لحريز في موضعه حصين . الى ان يزلزله رجل
حصيف رشيد . او امرأة عظيمة ذات رأي سديد .
ومهما كانت حصونكم متينة منيعة . فساعة الزلزال والدمار شديدة
سريعة .

ساعتئذ يتحدث الركبان في صنيع لأحد العظام جميل . او عمل
لإحدى العظيمات جليل .
اجل ان كل شيء لحريز في موضعه حصين الى ان يقف امام القوم رجل
صالح ذو رأي سديد . حر فصيح عنيد . او امرأة
صالحة ذات رأي سديد . حرة فصيحة لسانها من حديد .
يومئذ يعلو صوت المطالب بحقوق المستضعفين المستذلين المستعبدين .
صوت الامناء والامينات من زعماء وزعيمات على كل
ظالم جبار مهين .

* * *

وبعد ان تلاشت رياح السموم . تلاها نسيم العليم الرحيم . فدخلت
في اثره غابة من الصنوبر كثيفة الظلال . وسمعت من
خلال الاغصان . صوت المحبة والمعروف والحنان .
سمعت صوتاً يقول : ورب الاكوان . لا يدوم الا الاحسان
والعرفان . لا يدوم الا السجايا الروحية الفريدة .
سجايا النفس البشرية الخالدة .
لا تدوم الا آثار النهضات الجليلة . ومآثر الانفس السامية النبيلة .
وما اسخف الجدال والمنطق والبرهان امام مشروع جليل . وما
اوهن التعاليم الوضعية تجاه خطب جسيم . وما اوهى
الاقوال والاراء اذا قوبلت بنظرة من رجل عظيم .
او صادفت نفحة من نفحات حكيم .

عند ما يرفع مثل هذا البشر رأسه وصوته ولا فرق عندي رجلاً كان
اوامرأة يقف دولاب الاعمال . ولا يبقى شيء على حال .
عندئذ يبطل الجدال . وتنكسر شوكة المال . وتحشر الرجال .
وتكبر الآمال .

يومئذ تنقلب المجتمعات . وترتعد فرائص الطغاة الحفاة .
يومئذ تنقلب العادات والعبادات . وتهب على الارض الذاريات
السافيات .

فيسأل السائل من وراء النجوم : اين مالكم ونفوذكم وشوكتكم .
اين تقاليدكم وطرائقكم ولاهوتكم . اين شرائعكم ودساتيركم
وحكوماتكم . اين حصونكم وصروحكم وسجونكم
وجنودكم . اين مصانعكم ومعاهدكم . اين زخرفكم
وسفاسفكم ؟

فقل ان هي الا مدة من الدهر الوسنان . ساعة او عام او عصر
من الزمان .

قل ورب الاكوان . لا بقاء لما سوى الجد والعرفان . والمعروف
والحب والاحسان .

فهي هي الجبال الراسيات . وهي هي الحصون الواقيات . وهي
هي الباقيات الصالحات .

بلى ورب السماء والنجوم . لا يفلح المستكبر الظلوم . ولن تدوم الا
اثار النفوس الزكية السامية . ووجه ربك الحي القيوم .

تحت الرماد وفوق النجوم

— تحت الرماد وفوق النجوم . ما لا يرى من حياة تدوم —

رأيت فضيلة اليوم تجر اذيال الفجر والتبجج في شارع الرياء وفي ازقة الورع والقداسة فكرهتها نفسي .

ورأيت ما يسميه الناس رذيلة تقضي حياتها في ظلمات السكون والكتمان . وراء ستار الخمول والنسيان فحن اليها فؤادي .

لم اذاً نبغض الاشرار . ولم اذاً نعبد الابرار .

لماذا نميل وجهنا عن الفقراء الاذلاء . ونعفره امام الاغنياء والامراء

ان علية القوم اوطاهم ايها الاخوان فاحذروا من تكرهون ومن تحبون . من تحتقرون ومن تجلون .

وغداً ينير الله قلوبكم فتعرفون الحق وتعبدون .

لا والله انا لا اشمخ بانفي على الصعلوك ولا اعفر وجهي امام الملوك .

— ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا يرى من حياة تدوم —

اعلموا ان الكل في عيني سواء من الوجهة التي انظر منها الى الناس

كيف لا وتحت رماد نفس هذا الشرير جذوة خير حية • وفي بستان ذاك الصدّيق كثير من الجذور السامة والنباتات الكريهة الرائحة •

كيف لا وفي الصعلوك نفس تكبر اذا انطلقت من القيود والاغلال وفي الملك نفس تصغر اذا جردت من ترهات الابهة واباطيل الاجلال •

لم اذًا يحسد الانسان هولاء الاغنياء والاقوياء . واولئك الملوك والامراء ؟ ان افقر البشر حالاً . واوضعهم شأناً واقلهم مالاً . لهو من اعاظم الناس . اذا كان لا يحسد احداً من الناس

— ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا يرى من حياة تدوم —

انا لا اغبط من ابناء آدم الا الرجل الحر حقاً • الحر ايماناً وعملاً • الحر بداية ونهاية • واني اذا وجدت مثل هذا الرجل لأجله فوق كل اجلال •

اما الاغنياء والاقوياء • والملوك والامراء — تبارك اسماؤهم — فعظمتهم اما مكتسبة اصطناعية • واما خلقية طبيعية وجل ما في القوة المكتسبة مسروق منهوب • ومعظم العظمة الاصطناعية مختلس مسلوب •

العظمة العرضية الاصطناعية • هي كالسوس في عظام القوة الحقيقية
ومن يحسد السوس في العظام • او الذباب فوق الطعام
او الجراد على الاكام •

واما العظمة الخلقية الطبيعية فهي وأيم الله من روح الله •

وانا اطأطئ رأسي امام كل قوة بشرية فيها شيء من جوهر الذات
الالهية •

وان اسمى ما في قلب الانسان من العواطف الشريفة هي تلك
التي تتجلى في اتضاعه وخشوعه امام العظمة البشرية
الخلقية التي هي حقيقة الله في الناس •

— ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا ترى من حياة تدوم —



داويني ربة الوادي

داويني ربة الوادي داويني .
ربة الغاب اذكريني . ربة المروج اشفيني .
ربة الانشاد انصريني .

* *

الا تذكرين يوم رددت وحيك بين قوم لا يشركون مع البعل الها ؟
ويوم قدمت ذبيحة للزهرة من يد من لا يعرف من الآلهة سواها .
ويوم ناديت باسمك في هيكل ايزيس فطردني من الهيكل الكهان .
ويوم تصاعد دخان بخورك على (الاولمب) فاكفهر منه جبين رب الاوثان .
انا من وضع بخورك في مجامر الخدام في هياكل الرومان .
انا من عقد اوتارك في قيثارة راقصات بابل وقيَن اليونان .
أوَنسيت ما زرعته يدي حول هيكل تموز من الاشجار ؟ .
وما حاكته يدي لربة الفينيقيين من اكاليل الغار والازهار .
وما خطته يدي في كتاب عبدة الشمس والنار .
وما حطمته يدي من تماثيل الطغاة ودمى كبار الابرار .

داويني ربة الوادي داويني .

ربة المروج اشفيني . ربة الانشاد انصريني .

انشديني على قيثارك من الالحان التي تردد صداها اليوم طيور الغاب وشحارير البستان .

انشديني من الانغام . التي يطرف بها الرعاة الانعام .

صوت نايك في الدجى . وصوت ارغنك في الضحى . اسمعيني .

الى صوت عبادك على ضفات الانهار . وصوت اولادك في القفار . اهديني .

انشري الان حول سريري . ما كمن في الحقول من عبيري .

اسكبي الان فوق راسي . ما تركته الاحقاب في كاسي .

الحفيني بحبك . ضمخيني بطيبك . انعشيني بهمس شفتيك . وبلمس اناملك .

رددي على مسامعي الان . ما نسيته مما علمتني من الالحان .

اسمعيني الان . ما رددته عنك في مجالس قين بابل واليونان .

داويني ربة الوادي داويني .

ربة الانشاد اصلحيني .

* * *

انا ناي الرعاة من عبادك . انا عود العشاق من عبادك .

انا ارغن المتشرد من عبيدك . انا كنارة الراقصات ليلة عيدك .

انا النفس التي تتجلى فيها عرائس جمالك . وتنبعث منها اشعة

نورك . وتنطبع عليها اسفار حكمتك . وترف فوقها
بلابل سحرك .
انا صوتك حسدته الدهور . انا روحك ازلت في الفيدا وفي الزبور .
انا رسولك الى صفوة العباد . الى خير من زين الاحلام في المعاد .
بل الى كل من هام في كل واد .
انا وحيك في نشيد الانشاد . انا نورك في نفس من سربل التوبة
بالانشاد .
انا في قيثارك نغمة حبسها الجهل ضمن جدران الاهرام . بل انا
اغنية رددتها الليالي على الاعوام .
انا في قيثارك روح الفقنس تحت رماد المنون . بل روح ارفيوس
فوق امواج الفنون .
اجل انا قيثارك . وانا صوتك . وانا نشيدك .
ولكن يداً اثيمة خنقت البلبل في القيثار . وقطعت منه الاوتار .
فجاءت اليوم بنات الهديل تداوي بسجعها سجعي
العليل .
داويني ربة الوادي داويني .
ربة المروج اشفيني . ربة الانشاد انصريني .

* * *

المسيني بانامك . تعيدي الي بهاء ملكي .
عوديني في الاسحار . تشتد من نسماتك الاوتار .

اغسلي جراحي بموجات من فيوضاتك الالهية •
ضمدي اوتاري برقية من رقياتك الموسيقية •
اعيدي الي ما سلبتني الآلام من مجد الحياة الشعرية •
ضميني الى صدرك بنت الازل والخلود • فتزول عن جفني كآبة الاجيال • وينشر في عقم الجدود •
من يوم هجرت واياك الجفان في قديم الزمان • ما رأيت اجمل من الحب فيك الا الحنان •
فختام اليوم هذا الصد والجفاء وهذا الهجر والنسيان ؟
اذكريني ولو مرة في ظلامي •
عوديني ولو مرة في منامي •
انصريني قبل ان تذبل ايامي •



غصن من الورد

ركبت في الامصار البعيدة هواي وأرحته من عنانه ٠
غرست في بساتين الغرباء حبي فنوّر قبل اوانه ٠
غرسته في ارض سمراء جديدة فناحت عليه زهور زمانه ٠
طرحت بذور حبي جزافاً ذات اليمين وذات الشمال ٠
طرحتها في سهول الحرية ٠ فاحرقها قيظ الفوضى وداستها ارجل الهمجية
طرحتها في انجاد العلم فايبس ما نبت منها الصرُ وحملت رياح النزاع البقية الى حيث لا ادري ٠
طرحتها على شواطيْ نهر الفلسفة الراكد فذوت في ظلاله الظليلة ـ ماتت لانها لم ترَ نور الشمس ٠
غرست حبي في غياض الحضارة الغيضاء فادمته الاشواك ٠ خنقه العليق ٠ قتلته الجذور السامة ٠
غرسته في ارض الاحباء والخلان فمات بالاستسقاء في مستنقعات الكذب والرياء ٠
غرسته في حقول التجارة ٠ تجاه طواحين التمدن ٠ بين بيت الصراف وبيت الكاهن ٠ فتواطأ الاثنان عليه ومدّا في قلبه البلاط رصيفاً للصوص ٠

لاولئك اللصوص الذين يوآكلون ويشاربون القضاة ٠

ذهبت بحبي الى الفقراء والبوءساء فغرسته في ارضهم الجدباء فلم ينبت غرسته في دار ام الحي ٠ فاقتلعته ورمته قصياً وهي تقول : اذهب في طريقك ٠ جاءنا قبلك معزّون فقتلوا — صلبوا — حرقوا ٠ نطلب انصافاً وعدلاً ٠ لا تعزيةً ورحمة ٠

جزت حبي البوءساء الى مغاور اللصوص والاشقياء ٠ الى المنبوذين والممقوتين ٠

وغرست بينهم غصناً نضيرًا من حبي فعاش قليلاً نحيلاً ومات ٠

مات في ظلمات البوءساء والجاحدين ٠ دخان تجديفهم اعماه ٠ صراخ قنوطهم ارداه ٠

مات في كهف المنبوذين ٠ خنقته روائح البذاءة في فم الجاني وفي فم البغي ٠ فكفنه الفاجر بلعنته ٠ وجلقت الفاجرة فاها فوق جثته ٠

* * *

هجرت المدن وتلك المدنية وركبت البحار ٠

نثرت على المياه حبي كما تنثر شمس تموز ماسها ولآليها ٠

نثرته صباحاً فتلونت الامواج من اهوائه ٠ نثرته مساء فتوهجت من نيرانه الآفاق ٠

كلم حبي السحاب فاجابه • دعا البحر فلباه •
لمس حبي الافاق بانامله فارتعدت وتموجت مبتهجة متوهجة •

* * *

في صبح يوم من ايام الربيع بعثت حبي رائدًا في صحراء جديدة فمضى ولم يعد اليّ •
ناديته من قمم لبنان فلم يجبني •
فتشت عليه في الافاق وورائها • في مشرق الشمس ومغربها • فلم اجده •
تركت حبي يهيم ثانية على وجهه •
فركب هواه مرة اخرى وتركني اتحسر واتأسف عليه • آه عليّ • أواه عليه •

* * *

في وطني • في ارض اجدادي • في التربة التي ذاقت قديماً حلاوة ضربة المعول • في يد رجل قوي • غرست غصن ورد طري •
غرسته والآمال تدفعني والعزم يعقد شفتي •
غرسته في مكان عزيز • جعلته في حرز حريز • بعيد من الحضارة والناس •
ولا فرق عندي الآن ان صُمّت مسامعهم وان فتحت •
ولا يهمني اذا استحجرت قلوبهم • او استحالت طيناً • او ذابت

ماء معينا .

انت ايتها الارض امي وسأفرح يوم تضمينني الى قلبك كما تضمين الغصن الذي انا الان غارسه .

انت ايتها الارض حية ابدًا — ابدًا تحبلين وابدًا تلدين .

مهما كان ظاهرك فالشعور فيك لايموت . النار في قلبك لا تخبو .

الخريف يزيل الوقر من اذنك . والشتاء يحنفظ بقلبك . والربيع يجري على لسانك . والصيف يريك ثمرة احشائك .

ومن افصح منك في الربيع واكرم منك في الصيف ؟

من اشدعطفاً وتهيجاً منك في الشتاء . من اشد سمعاً في الخريف ؟

من ارحم منك ايتها الارض . من الطف واشفق واحلم ؟

تقبلين منا الاقذار وتعطينا عوضها الازهار .

تستنشقين نتانة امراضنا وروائحها وتعيديها الينا شذاء طيباً .

تسكب لك السماء كأساً من الماء الزلال فيعكره الانسان فتفيضين عليه مكافأة خيراتك ومراحمك .

ارض اجدادي افتحي لي قلبك الآن .

لا تجهميني . لا تعبثي برجائي وعملي . لا تحبسي حبي عني دهرًا .

ايتها الارض التي نقبها ابي . وصلت تحت اشجارها امي . لا تودعي آمالي الصخور . لاتحمليها الى قمم الجبال فتقتلها هناك الثلوج والرياح .

* * *

على كتف هذا الوادي الذي ردد صدى صراخي وغناني صغيراً .
في هذه الارض التي هجرتها قبل ان هجرتني الصبوة •
غرست غصن ورد طري •

كلمت الارض بيدي لا بلساني • حصبتها ونقبتها بمعولي الصغير •
أطعمتها من ذاك الاسود الذي تفرزه المواشي ومن
ذاك الاصفر الذي يكاد يشتعل في الصحراء من قبلة
الشمس ويكاد يذوب على السواحل من قبلة الامواج •

سقيت غصني من ماء الفؤاد وحجبت عنه في الطفولة نور الشمس
رفعت فوقه سرادق حبي في الصيف ونثرت حوله اوراق حب
الخريف في الشتاء •

ولبثت اذ ذاك انتظر جواب الارض وحكمها •

كم مرة زرت غصني وهززته مستخبراً فلم تبد عليه من الموت
اشارة ولا من الحياة •

كم مرة افتقدته وقلبت فيه الطرف مستقصياً اخباره •

كم مرة وقفت امامه والفؤاد يتموج بين اليأس والرجاء •

تباركت ارض اجدادي • فقد حسن في عينها اجتهادي •

تباركت ارض امي • فستريني الورد على غصن تعبي وهمي •

نعم ان الارض كلمتني . اجابت الارض سؤالي . رددت الارض
صدى حبي •

فها ان غصن الورد ينطق كالطفل .

قد بدت على شفتيه لفظة الحياة . واثمرت في قلبه الكلمة التي تساقطت عرقاً من اناملي ومن جبيني .

في فمه لؤلؤة صغيرة ملفوفة بلفافة ذهبية . وفي صباح الغد تستحيل لفافة لازوردية . وتبدو اللؤلؤة زمردة نحيفة ندية .

وبعد غد او بعده ينشأ من الزمردة صدفة خضراء . في قلبها جور من الورد لا ترى واجيال من الحياة لا تعد .

في قلبها اوراق خضلة صغيرة ملتفة حول عرق نحيف طري لا يعرف بعد اسم الشوك ولا معناه .

في قلبها اغصان . وفي قلب الاغصان ورد . وفي قلب الورد بذور . وفي البذور الابدية والخلود .

* * *

كلمتني ارض اجدادي . احيت في الرجاء . ضمت الى صدرها طفل حبي وغذته فاحيته بجميل حبها .

نفخت فيه من روحها الازلي فتحرك لسانه .

هو ينطق بما تلقيه اليه من آيات الحب والجمال والحكمة والرجاء

اين فصاحتي من فصاحتها ؟ .

لا تنطق الارض الا لتحيي . لا تتكلم الا لتزهر وتثمر .

ما قالت « لا » بزمانها قط . فان كان جوابها ايجاباً « فنعم » وان سلباً فسكوت ابدي .

كل آياتها جميلة • كل اقوالها منعشة محيية •
وليتها تعلم بنيها القول المثمر المنعش الجميل •
او ليتها تعلم بنيها السكوت •

* * *

كأني بالارض تقول : ليكن عندك ذرة من الايمان بي واعطني
ساعة من العمل فاعطيك عوضها مئة بل الف ضعف
من الحب والرجاء من السرور واللذة من العزم والنشاط
من الحياة البسيطة النقية التي لاسعادة للانسان الا بها

* * *

كل جرثومة على غصن الورد الذي غرسته هي لفظة من الفاظ
الارض العذبة • هي رسالة حب من الام لبنيها •
كل برعم من هذه البراعم هو عقدة من عقد الكون • هو سر
من اسرار الحياة • في اي عصر ولدت ايتها الوردة •
اي ارض شاهدت اول زهرة من ازهارك واستنشقت
اول نفحة من اريجك ؟
من زرع بذرتك الاولى • من غرس اول فرع من فروعك ؟
اول غصن من اغصانك الاصلية الاولى — من نقله من الحقل الى
البستان • من الوادي الى حديقة الانسان ؟
ايتها الوردة البرية بل الوردة السرية من اي دغل نشأت وفي اي
سلم من النباتات الشوكية رقيت ؟

لا تتكلم الارض رمزاً . الارض لا تأتمن بنيها على اسرارها .
احترز من شرك العلة الاولى . لا تبحث في اصول الاشياء .
متع نظرك ونفسك فيما تراه وتسمعه وان شئت الدخول الى هيكل سر الاسرار فتجرد عن الجسد قبل ان تطأ اسكفة الباب

* * *

اني لاجد لذة شهية غريبة في مشاهدة هذه البراعيم الجديدة وفي مراقبة نشوئها ونموها .
عددتهم والله مراراً كما تعد الام اسنان طفلها .
افتقدتهم مراراً كما تفتقد الطيور عشوشها .
تلهفت اي تلهف على برعم واحد نثرته الرياح منها .
ولكن زمن السرور قصير . تكاد زبدة الاشياء تذوب قبل ان تجمد .

* * *

اواه صرت اخشى الاقتراب من وردتي . فقد اثت فروعها . والتفت اغصانها . وقسيت اشواكها .
اواه صرت انظر اليها بغير العين التي شاهدت نشوء براعيمها ونمو فروعها .
لهفي على وردة الحياة . تريني الف شوكة قبل ان تفوح بنفحة واحدة من شذاها .
تجرحني مئة مرة قبل ان تعطيني زراً واحداً من ازرارها .

فوأد [1]

١

عند مهد الربيع

عرفتك قبل ان اخضرت من نسمتك الاولى صدور الحقول وجوانب الربى .

وقبل ان نور المهد من حر شفتيك .

وقبل ان بدد نور عينيك غيوم الشتاء فهدأ البحر وانجلت السماء .

* * *

عرفتك قبل ان حاكت لقصورك الجبال طنافس من العصفر والاقحوان .

وقبل ان اعدت لسريرك النمارق من الرياحين وريش الصنوبر وشقائق النعمان .

وقبل ان ملأوا كأسك من دهن اللوز وماء الورد وعصير الرمان

* * *

عرفتك قبل ان نصبت لك العاصفة الاخيرة قوس نصر من دمها ودمعها وزفيرها .

---

(١) ابن اخته فؤاد يوسف صادر ولد في ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٨ وتوفي في ٢٠ ت ٢ سنة ١٩٠٩ فاستقبله بالقصيدة الاولى وودعه بالثانية

وقبل ان ولت من الغيوم الباكيات واقبلت الضاحكات تجر
ذيولها الفضية فوق صنين .
وقبل ان لحفتك شمس الضحى باشمة الحب والحنان .
وقبل ان رفعت فوق سريرك عندالغروب قبة من نورها الولهان .

* * *

عرفتك قبل ان سدلوا على وجهك نقاباً من الغمام . ليحجبوا
هناك هنيهة رب الانام .
عرفتك قبل ان عرفت عيناك معنى الدموع واسرارها .
وقبل ان ذابت عن اهدابك الثلجة الاخيرة وسقطت عليها
القطرة الاولى من ندى العشق والحياة .
عرفتك قبل ان نوّر في خديك الورد . وتلألأت على شفتيك
الابتسامة .
وقبل ان غردت في الغابات اطيارك . وعطرت الآفاق رياحينك
وازهارك .
عرفتك قبل ان سمعت آذانك هتاف الانهر وعويل الرياح .
عرفتك قبل ان عرفت من الحياة الغسق والليل والصباح .
هززت سريرك بانفاس كانت لهيباً قبل ان صارت نسيماً .
واصبحت حياة بعد ان كانت سديماً .
وكان ربك بذلك عليماً .
هززت سريرك باليد التي احترقت مراً فاستحالت مسكاً وبخوراً

حول السرير الكمين .
باليد التي اكتسبت زغباً تحت رأس امير الرياحين .
باليد التي نور في اناملها الجلنار وفي راحتها النرجس والياسمين .

* * *

هززت سريرك قبل ان نما الفؤاد مني آساً وغاراً تحت قدميك .
وقبل ان فاض ابتسامي نوراً فوق عرشك .
وقبل ان هطل غيمي دمعاً حول سريرك .
هززت سرير طفل الربيع قبل ان سار كاي قسماً من سريره :
هززته في الاعماق . ففاح اريجه في الآفاق .
هززته في اعلى عليين . فغردت بلابله في الرياض والبساتين .

* *

عرفتك قبل ان ودعتك السماء . وقبل ان عرفتك الغبراء .
ولكنني استغربت صراخك ياابن الربيع ويا ابن السماء .
ان لفي بكائك سراً لا تذيعه الازهار .
وان لفي سكوتك لغزاً حفظته النجوم والاقمار .
وان لفي نظراتك المبهمة الندية شيئاً من غوامض البحار .

* * *

أجئتنا من الم الفراق باكياً . أم جئتنا الوحشة شاكياً ؟
اين منك الروح التي تلقي في العيون سحراً حلالاً فيذوب حباً وجمالاً ؟

اين منك الادراك الذي يلتهب في العالم نجماً فيشع في الشاعر خيالاً ؟
بل اين من نفسك الان ما حير البرية في الانسان ؟
اين منك تلك القوة التي اغلّت الصاعقة . وذلت البحار . واسترقت الرياح والكهرباء والبخار ؟

* * *

اتحلم ملائكة السماء بفراش الارض وخنافسها ؟
اوَ تذكر الفراشة يوم سارت تحت جناحها الشمس ؟
افي خطوط هذه اليد الصغيرة البضة آثار حبك النجوم واسرارها ؟
أوَ تحت هذه الاهداب الناعمة قبس من نورها ونارها ؟
اتذكر شفتاك الكاس التي سقتكها زنبقة الوادي ؟
اتذكر الغدير الذي كان يغسل قدميك يوم كنت مضطجعاً مع الدفلة تحت ظل الدلب والصفصاف ؟
اي ابن الوادي . ان فيك من بهاء الربيع ما فيك من مجد السماء .
ان لفي هذه الوردة البشرية جذوع الماضي واريج الحاضر وبذرة المستقبل .
اقبل رجليك لانني لا انكر الماضي ولا انبذه .
واقبل عينيك لانني اراك شاخصاً الى العلاء .
واقبل سرتك لرمز فيها بليغ جميل .
ففي السرة سلسلة الحياة التي لا تتم حلقاتها ان لم تقطع يقطعها الانسان فيعيد وصلها الله .

فاذكر قبلاتي الثلاث ان عدت في مستقبلك البعيد الى ماضيك هذا القريب .

واذكر ايضاً ان في كل قبلة حسرة ما زادها العلم الا اشتعالاً .

* * *

عرفتك قبل ان ودعتك السماء وما عرفت من سر هذا الوجود سوى الحاء والباء

عرفتك قبل ان عرفت الربيع وقبل ان هززت سريره الخفي .

عرفتك قبل ان اسرنا فصرنا بديع قواف لشعر الهي .

نظمنا الاله واودعنا سراً من اسرار بيانه الازلي .

وقال عليكم بنجم سريع فهو فيكم ومنكم يضي .

بهاء الحياة ومجد الحياة اليكم بنوري اليكم يدي .

فجينا نجوم النفوس عراة وفينا الخجول وفينا الخليع .

اشدنا هناك بسعد تساوى الملاك العصي به والمطيع .

شهدنا هناك ظلاماً تلاه بهاء تلاه ظلام سريع .

وقفنا حيارى وفي الظلمتين ضياء الحياة يضي ويضيع .

شهدنا الدياجي وفيها الاحاجي فهذا الاله وهذا الربيع .

ذهلنا فقلنا : اربي لماذا ؟ فقال : اسقطوا من مقام رفيع .

وقفنا . دهشنا . سألنا . سقطنا . فجئنا وسر القريض نذيع .

فديوان ربك هذا الوجود وفيه السخيف وفيه البديع .

وانت ابن اختي بيت القصيد وخالك شاعر رب الربيع .

٣

عند لحد الربيع

ومثل خيالي اشرقت يوماً وغبت قبيل الصباح فؤاد .
ومثل خيالي انسيتني نعيم الحياة وبؤس العباد .
ومثل خيالي أسكرتني فقلتُ : « اليراع » فقلتَ : « الحداد » .
ومثل خيالي حيرتني رحلت وسرك في ذا الجماد .
بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .
ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد .
وبلبل نفسك في وحشة — بل بلبل نفسي في تي البلاد .
وحلو ابتسامك تحت الازاهر ألبس روحي شوك القتاد .
فراحت الهة حبي تهيم وتبكي فؤادي في كل واد .

* * *

لله انت من وردة سرية ناطقة قطفتها يد القضاء .
لله انت من شعاع فهم عجيب زال كالظل في البيداء .
لله انت من طير اسف فوق بحر الحياة فذاق ملحه وعاد الى الفضاء .
لله انت من طفل سجدت له اطفال السماء .
ايه اطفال السماء ! وهذا ربيعي اصبح ثلجاً فليت الربيع وليت المعاد .
وليت النجوم تحدث عنه فهذه تجاليده في جماد .
وحلو ابتسامه تحت الازاهر ألبس روحي شوك القتاد .

بنات خيالي انيري حول خيال فؤادي في كل واد .

* * *

كشفق من اشفاق الايام . كحلم من جميل الاحلام . كوميض
برق لاح في الظلام — كذلك كان ابتسام الحبيب .

كنفحة من نفحات الجنان . مرت مع نسيم الفجر في البستان .
فرنحت الورد والبيلسان . وايقظت الشوك في القرقفان .
كذلك كانت حياة الحبيب .

كفراشة مختبئة بين الرياحين . امسكها عدوٌ كمين . فدفعها الى
جهلة ظالمين . سمعتْ أدواتهم الانين . فبكت حظ
مثل هؤلاء البنين — كذلك كان نصيب الحبيب .

ويلاه من طب اجهز على الحب .

ويلاه من طب هو الشوك في نبت غمنا . ومن طبيعة هي امنا .
ومن قبور هي لحمنا ودمنا .

بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .

ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد .

* * *

ركضت حولي في الدار فعلمتني حب الصغار . حباً طاهراً صافياً
كله ازهار .

وقفت الى جانبي في عزلتي فكنت حبيبي وسيدي ومعلمي .

فتحت امامي ابواباً عجزت عن فتحها حكمة الحكماء . وسدتني

بما لا تضاهيه شوكة الملوك والامراء • وهديتني سبيلاً ضلت في سبيله العلماء •

انكرتُ سلطة المسيطرين • فجئتني وسلطتك من اعلى عليين •

لله من اطفال هي ملوك في قلوب الرجال •

لله من ضعف صولجانه فوق صولجان ملوك الزمان •

كفرت بحب الاطفال فبعثك الله اليَّ رسولاً •

وصرت عندما اشاهد طفلاً احييه باسمك ساجداً • واقبله واجداً •

انما هؤلاء رسل الله في الناس •

رسل هم الاطفال — رسل الحب والحنان والواجب والجمال •

رسل كلماتهم سلام • وسيوفهم ابتسام •

لله من رسول انت اخلصت لك الايمان • وكنت لك اطوع من البنان •

ولكنك اليوم حيرتني رحلت وسرك في ذا الجماد •

ومثل خيالي اشرقت يوماً وغبت قبيل الصباح فؤاد •

* * *

اقمت في وادينا صيفاً واحداً كنت فيه الصيف والربيع • وكتبت في قلوبنا آيات هي خلاصة البيان والبديع •

نظرت الى السماء مساء فادهشك كوكب هناك •

مددت يدك الى القمر كأنه داحة في ذراك •

سمعت انغام الموسيقى فطربت لها كأنها بنات بديهك وذكاك •

عطفت على الازهار واحببت الرياحين كانما صنعتها يداك .
حسدك الحسون على زقزقتك . والحمام على حركاتك . والورد على شذاك .
حييت كل عابر طريق باسماً وفي كل امرىء حبيت اخاك .
كدت تشعر بالخطوب قبل حدوثها فادمعك قبل ان يدمعنا بلاك .
كللناك بالورد والغار . ياحبيب الرياحين والازهار .
وفي ربيع السماء الخالد دموعنا طل في الجلنار .
بل زهور في افلاك تدار .
بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .
ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد .

* * *

من هضاب جللتها السماء الى مدينة خيم فوقها البوءس والشقاء .
حملناك والغم يحملنا الى منبت التمويه والتلبيس والادعاء . الى حمى الاطباء .
ضربت في موطن الفهم والنور . فكان داوءك ذكاك [1] . دماغ هو النبراس . في غشاء هو القرطاس .
ويلاه من هذا الشهاب . وهذا الالتهاب .
في فترة من الزمان سقيت من مر الحياة مما يغص به جبابرة الزمان .
يوم اسففت وقعت فكنت احجية في دائك . كما كنت احجية

(١) اصيب بداء الـ (مِننَنْجِيتْ) اي التهاب غشاء الدماغ .

في ذكائك ٠

قال المداوون وقالوا ٠ وضربوا في ميدان الحدس وجالوا ٠ وانت بعيد عن جهل هو عندهم اليقين ٠

مددوك على لوح التشريح وانت مسرع الى من لا يحدس في شؤون العالمين ٠

اشمُّوك المخدرات ٠ وانت في غنى عن هاته الترهات ٠ كيف لا وقد اشلك الداء وخدرك الدواء ٠

جاء الجزار واعوانه بادواتهم وعقاقيرهم ٠ واحاطوا بك ليبعدوك عن ملائكة اسرعوا الى لقاك ٠

بضعوا الجلد ٠ كسروا الجمجمة ٠ اجالوا ادواتهم في الدماغ — ويلاه من اطباء يخبطون ٠ بل من جزارين يجربزون ٠

قطبوا الجرح ٠ لفوا رأسك بالشاش ٠ كفنوا وجهك الاصفر باوهامهم ٠

ضمخوك بروائح العذاب والموت ٠ وتركوك على سريرك لامك ٠ لابيك ٠ لخالك ٠ لربك ٠

كفناك باغشية قلوبنا وكللناك بالورد والرياحين ٠ بكيناك باسم كل ما احببته واحبك في وادي الامين ٠

بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد ٠

ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد ٠

وحلو ابتسامك تحت الازاهر البس روحي شوك القتاد ٠

فراحت آلهة حبي تهيم وتبكي فؤادي في كل واد ٠

النفس الراحلة (*)

على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها .
بل تنتظر الاحباب ارواحها .
آه على المحبين . المودعين والراحلين .

* * *

اقف عند جثماني . لاودع اصحابي وخلاني .
ومن فوق نعشي . احيي الاعزاء المودعين .
اتخذت الموت منبراً . فرأيت من علاه ما لا ترون . وسمعت ما لا تسمعون .
جموع مثلكم يعولون في شمال الارض وجنوبها . وارواح مثلي ينتحبون .
في السفينة التي تعبر نهر الموت والحياة . من ابناء الارض عظماء وعظيمات .
هم رفاقي الان الى الجنان .
فلا تيأسوا . ولا تجزعوا .
الموت خرافة مرهبة . الموت صورة فانية . الموت منبر الخلود .
الموت هو الدرجة الاخيرة من سلم العذاب . فلم

(*) تذكاراً لراحيل دريان المتوفاة في ١٣ اذار سنة ١٩١٠

تنحبون . ايها الاحباب ؟
على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها .
بل تنتظر الاحباب ارواحها .
آه على المحبين . المودعين والراحلين .

* * *

ما بالكم تنحبون . اواه ودمعة الفراق من يكفر بها ؟ دمعة الوداع من يجهلها ؟
دموعكم كالوابل المتساقط على بحر هاجت امواجه .
دموعكم تسكن الرياح .
دموعكم تنور حول الراحلين زهراً . وتتكون في صدف الحب لؤلؤاً ودراً .
دموعكم نور يضيء ساعة الفراق المظلمة الموحشة .
دموعكم نقط لكلمات سفر الحياة .
دموعكم ازهار على ضفتي نهر الاحزان . ودموع الراحلين طل في كؤوس هاته الازهار .
آه على المحبين المنتحبين . المودعين والراحلين .

* * *

ساعة ازمعت الفراق . بدت لي اشياء من هناك — من وراء الكواكب والاقمار .
ساعة علت صيحة الاحباب . رفعت اليّ اعلام جميلة من خلال

الضباب .

على ضفاف النهر الابدية . في ظلال السدر الندية . رأيت الراحلين .

على فرش من السوسن متكئين . وسمعت اطياراً تغرد

حولهم : « الى حين ايها المنتظرون الى حين »

في تلك الظلال احبابي حيث الورد لا يذوي والربيع لا يزول .

حيث الحب يلعب متلهياً عن التنائي في جمع اصداف الحزن

ولؤلؤ الرجاء .

هناك على احدى الروابي . انتظر احبابي .

وانسج لهم من ازهار الدموع والسرور . اكاليل مجد لا تبور .

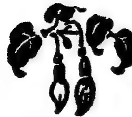
وادخل واياهم بيتاً جميلاً خالداً من الحب والحبور .

* * *

على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها .

بل تنتظر الاحباب ارواحها .

آه على المحبين المنتحبين . المودعين والراحلين .



معبدي في الوادي

ايه ام الطبيعة بل امي . جئت اجدد معك آمال الحياة وسرورها .
جئت اجدد عهدي وايماني مع كلاء الحقول وزهورها .
جئت اردد تحت هذه الافنان الخضراء . ابتهال ابنائك الاتقياء .
وقفت على ضريح الشتاء ليلاً . فشاهدت هناك مشهداً جليلاً .
شاهدت ربة الربيع تقبل جبين ابيها . فينوّر الاقحوان تحت شفتيها .
رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود . فيردده العصفر في الجلمود .
ورأيت الاولاد في الحقول حفاة . يقطفون الزهور خير من تألم في الحياة .
فقلت في نفسي ونعم الايمان . في قلوب الصبيان .

* * *

ان في قلبي اليوم شيئاً مما في قلب جاري . وفي قلب الغاب اثراً من اثاري .
ألا ان قلبي في عقل هذا القروي . وعقله في قلبي الخفي . والذي يراه تحت الكلاء اراه انا في السماء .
والذي يراه في الارض المنبثق منها نور العالمين . اراه في اكمام الورد او في براعم الياسمين .

فاذا كنت ارى ذلك في الحقل فلماذا ابرح الحقل ؟
ألأسمع في الكنيسة وعيد من لا يعرف من اسرار الحياة . سوى ما قرأه في كتب اللاهوت والصلاة .
ان في ورقة من اوراق التوت . سرًا لا يكشفه اللاهوت .
الى الوادي إذًا . هناك بين اشجار البطم والزيزريق وتحت ادواح الصنوبر والسنديان . اشيد هيكل الايمان .
اراني هناك في بيتي . بل في بيت الطبيعة . بل في بيت الله .
ورفقائي هم حقاً احبائي . هم اخواني . حباً بحبي وايماني .
ان هيكلي لقريب من سلسبيل فضي ذهبي يجمع بين الدم الجاري في العروق . والصبيب المتصاعد في الاشجار . واللبن الذي يجدد في النبات حياتها . وفي الازهار اريجها والوانها .
وان منبر مرشدي هو مسرح الانشاد والتغريد . لا منصة التحذير والوعيد .
اسمع همس الافنان . وهي تسبّح في قلبها الرحمن . وقد احياها النسيم العليل . الذي جاءها اليوم من بلاد الجليل .

* * *

سماع ! قد بدأ الدوري بتلحينه والسنونو بانشاده .
سماع ! ان من حلق الحسون الذهبي تتدفق الانغام الفضية .
ان الاطيار تدعوك الى تجديد ايمانك وامالك في الحياة .

هي تفتح لك ابواب السماء مفردة • ولا تبعدك عنها متهددة •
هي تدعوك الى العمل • وتنفخ فيك روح الجد والامل •
اي ربة الغاب ان رؤساء هيكالك يرددون صدى نشيد الربيع
لا صدى منطق « الغوري » والمعضلات •
وشتان بين « الغوري » والدوري • وبين الحسون والخوري •

* * *

في ظل القويسة والغار • وبين الصعتر والوزال والخنشار • وبالقرب
من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء • وفوق
النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب • ابني
لك ايتها النفس هيكلاً من الايمان • يؤمه في
المستقبل البعيد من اخواني والقريب •
بل اقيم فيه تمثالاً للوداد والاخاء • وادعو اليه كل بشر تحت
السماء •
فيه احيي اليوم انفس المستقبل ومستقبل الانفس العظيمة •
وحياتي لاتزري بحياة الخنافس والدبابات • لان الناموس الذي
يحركها تحت الكلاء • يحرك النجوم في حبكها
والسيارات في بروجها •

* * *

ان الاريج المنتشر من هذه الادغال هو البخور الذي يحرقه
الربيع على مذبح الحياة والايمان •

هو اريج الزعرور والقندول المختبئة اشواكهما الآن تحت نقاب جميل من الازاهر الصفراء والبيضاء ٠

بين هذه الادغال الشذية ٠ وتحت شعاع ابتسامة الاشواك ٠ يلذ لي التأمل في من مات ليحيي الحب والوداعة في الناس ٠

بين هذه الاشواك يحملني الخيال الى حيث وضع الاكليل على رأسِ الشهداء ٠

على ان الزمان لم يبق منه سوى الازهار التي تنوّر كل عام في قلوب الاتقياء مثلما ينوّر القندول والزعرور في الغابات ٠

فباسمك ايتها النفس الالهية اصنع لايماني اكليلاً من زهر الزعرور لا من اشواكه ٠

باسمك أشيد لحبي هيكلاً من خشب السنديان ٠ وازينه بالصنوبر والنيلوفر وباقمار البيلسان ٠

والى اتباع الذي صُلب وبني الذين صلبوا اقول : تعالوا نسبحه اجمعين في وادي المسرّة لا في وادي الدموع ٠ تعالوا نتصافح تحت السماء ٠ حيث لا حاجز يحول دون الحب ٠ ولا ما يحول دون الاخاء ٠



انا غريبان ههنا

او

جمعة الآلام

كلمة همسها النسيم في اذن رعاة الجليل فسمعتها الدهور ورددتها الاجيال .

كلمة من اغصان الزيتون في اورشليم زلزلت العروش واسمعت ملوك الارض صوت ذي الجلال .

كلمة زرعتها دموع المرأة تحت الصليب . فنورت في السماء وكان فيها مسك ختام النحيب .

هي كلمة الربيع في كل عام . بل نشيد الاطيار على الدوام . بل اغنية الازهار في الحقول والآكام .

وان انفس الناس النبيلة . لتتجسد في مظاهر الربيع الجليلة .

ان في كل نفحة من نفحات الربيع . روح بشر عظيم وديع .

ان العام في هذه الايام . يحتفل بفوز امراء الحب وملوك السلام .

وان اكليل الشوك لاعظم من تيجان القياصرة . وكأس المر لاطيب من خمرة الاكاسرة — وقد يدرك هذا الانسان فيظل من عبيد الزمان . بل من اسراء الغرور والبهتان

* * *

جئت الكنيسة لاردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس · بل
ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب · وتحلو بمر
الشراب ·

دخلت الكنيسة وفي نفسي من احدالنخل والزيتون ما لا ينسيني
اياه يوم الجمعة الاليم ·

بل في نفسي من السرور والابتهاج ما لا يضاهيه فرح الناس في
العيد العظيم ·

ان في هذا اليوم يجتمع القمر والشمس · فيشرق الغد على
المستقبل ويشرق على الحاضر الامس ·

في مثل هذا اليوم ولد على الصليب الكريم روح بشر صميم ·

انه ليوم حبور ايها الاتقياء · لا يوم حزن وبكاء · بل لبس ورياء ·

* * *

وانما نحن في جنازة المسيح · وهذا وربي تجديف قبيح ·

ان وراء ذلك الستار الاسود الصليب · وامامه الاباء ووجه كل
قطوب كئيب ·

هم يجتزون من لا يعرفون · بل يدمدمون وينعبون · والناس
اليهم شاخصون ·

ويلاه انا الوحيد الذي لا يرى ما يراه الآباء · ولا يشعر بما يشعر
به هؤلاء الاتقياء ·

ها قد مشى في الجنازة المدمدمون · وهم في الكنيسة يطوفون ·

وهذا الصليب • وقد تصاعد وراوه النحيب • وامامه البخور والطيب •

وصل الموكب اليّ • فما جثوت على ركبتي •

سرحت في الناس نظري فرأيتهم كلهم ساجدين • ورأيت بقرب مني رجلاً اخر من الواقفين •

فرأيت في وجه هذا الغريب • ما خالج قلبي الكئيب • وصرخت ساكتاً : الهنا • انا غريبان ههنا •

ثم كلمته فقلت : ولمَ الجناز • ومن صلب قد فاز ؟

ولمَ هذه الصلوات المبكية • وقد اشرقت على الارض ابتسامة آلهية ؟

مال الغريب بنظره اليّ ولم يجبني بشيء •

* *

ها قد دفنوا الصليب تحت الزهور • وانجلت غيوم البخور •

وطفئت الشموع • وكفكف المدمدمون الدموع •

خرجنا من الكنيسة انا والغريب ونفسي تناجي ذاك الحبيب

فسرنا معاً الى بستان من الزيتون خارج المدينة •

وجلست تحت شجرة هناك فجلس الغريب الى جانبي •

نظرت اليه ونظر اليّ • وقد استولى علينا السكوت والعي •

فكانا حبيبان • فرق بينهما العرفان • فجمعهما الحب والحنان •

وفي مثل هذه الساعة تفصح اللحاظ • عما تعجز دونه الالفاظ •

على انني حرت في امره العجيب وقلت في نفسي من ياترى الغريب .
وما كاد يخطر ذلك في البال ، حتى وقف امامي كالخيال ،
فعرفت الطيف في الحال . وقد انكرته في شكل الرجال .
وناديته مدهوشاً : اخي - رفيقي - سيدي - هذا فؤادي
ها يدي .
نفحة من جنانك . كلمة لاخوانك .
أسمعت خدامك ينعبون ؟
ألتمثالك الناس يسجدون . وهم عنك بعيدون ؟
سيدي دعني القي على كتفك راسي . فيذوب ثلج فتوري ويأسي .
اقربني من فؤادك . لاتزود من الحب الذي لا يعرفه احد من عبادك .
سيدي اسقني من الحرية والحق والاخاء . ما لا يشوبه الخوف والرياء .

* * *

وبين انا اكلمه في البستان . طل البدر من شرفة لبنان .
فتركني ذو الجلال . مكانه كالخيال . وذاب في القمر فوق الجبال .



عشية راس السنة (*)

قم ايها الناعس المتقاعس . قم ايها اليائس من الحياة .
قم ايها العالم الفاتر الشعور القليل الاكتراث .
قم ايها البخيل النائم على الصكوك والاوراق .
قم ايها المقامر العبوس المكتئب وقم انت ايها المسرور المحبور المبتهج .
قم ايها الساخر بافراح الشعب البسيط .
انهضوا كلكم واخرجوا معي الى اسواق المدينة هذه الليلة .
انهضوا من رقادكم . اخرجوا من سجونكم . اطلقوا النفس من قيودها .
أحيطوا بهذا الجسم النحيل . اعطوني ايديكم ولا تخافوا .
تعالوا معي ولا تأسفوا على شيء فات او مضى .
اسمعوا اسمعوا . ان الابواق تناديكم . والاجراس تستقبلكم . والليل يبتسم ابتساماً لخروجكم .

* * *

نعم نحن في منتصف الليل .
ولكن شمس تموز في رائعة النهار لا تنير الارض كما انارت المدينة ليلة عيدها .

(*) كتبت في مدينة نيويرك . وفيها وصف احتفال الناس هناك باول ليلة من كل عام جديد .

ازاهر ايار لا تبهج النفس كازاهر هذه الانوار .

كيف لا ومن اصوات السرور في الليل ينور الاثير في الفضاء . وتزهر جنان الجوزاء .

تعالوا واياي الى اكبر شارع واجمل جادة أريكم هناك جمعاً عجيباً من البائسين والبائسات يموج كالبحر الهائج ويهتف هتافاً عظيماً جميلاً .

وما هذا الشعب بشعب ثائر . بل هو محبور فاز بالحياة ساعة بعد ان عاش في حياض الموت خلال العام المنصرم .

اليّ نؤم احقر الاكواخ واظلم المضايق واقذر ازقة المدينة اريكم هناك اغنى الناس واكيسهم . ارفعهم واشرفهم .

قد جاءوا هذه الليلة ليؤاسوا الفقراء . جاءوا ليتفقدوا شؤون البؤساء .

ولكنهم قصدوا الاكواخ والمضايق والازقة فوجدوها خالية خاوية .

في هذه الليلة يخرج الغني من قصره . والفقير من كوخه . والبائس من سجنه . والعبد من قيوده .

في هذه الليلة يتحرر الانسان .

* * *

اليكم ايها الساخرون بافراح الشعب البسيط .

تعالوا معي الى الملاهي ترونها مهجورة . والى رداه الرقص

ترونها انها مظلمة . والى مجالس الانس ترونها فارغة .
والى بيوت الشعب فتشاهدوها مزينة باغصان النخل
. والشربين وبالانوار الصينية المنوعة الالوان .

في هذه الليلة يتحرر الانسان .

يتحرر الانسان ولو ساعة واحدة في رأس كل عام .

ولو ساعة واحدة في السنة تتساوى افراد الامة وطبقاتها ويخرج
البشر من السجون التي بناها البشر .

تنطلق الرجال من القيود التي صنعتها الرجال .

في هذه الليلة لا يذكر الانسان شيئاً سوى انه حر سعيد محبور .

ينسى الفقير كونه فقيراً . وينسى الغني كونه غنياً . وينسى
الشريف كونه شريفاً . وينسى البائس كونهِ بائساً .
وينسى الفاعل كونه عبداً .

ان فرح الناس في هذه الليله لعظيم . فتكاد المدينة تضيق على ما
في قلوب اولادها من السرور والابتهاج .

نعم في مثل هذه الليلة يخرج الانسان من كل ما بناه الانسان
وشيده .

الملاهي والحانات والمعابر ورداه الرقص وبيوت اللذات كلها —
كلها لاتشفي له غليلاً . كلها ضيقة مظلمة . كلهاصغيرة
واطئة .

لا شيء هذه الساعة في العالم يستحق ان يقف الانسان تحته متهللاً

ممجداً . الا الفضاء غير المتناهي . الا السماء الشهباء
المرصعة بالنجوم . المزينة بالكواكب والاقمار .
في هذه الليلة يخرج اولاد المدينة وبناتها ورجالها ونساؤها
ليودعوا العام المنقضي وليستقبلوا العام الجديد .
يطوفون في الشوارع مهللين فرحين . نافخين في المزامير والابواق .
هاتفين في الاسواق هتاف الصبيان .
في هذه الليلة يتحرر الانسان .

* * *

هلموا الي ايها الساخرون بافراح الناس .
تعالوا انظروا كيف الغني والفقير . والشريف والعامل . والصالح
والاثيم . والصاحي والسكران . والكاهن والجاحد
يسيرون كلهم جنباً الى جنب .
تعالوا انظروا كيف العاهرات يمسسن بمناكبهن مناكب العذارى
والامهات .
وكلهم رجالاً ونساء . صبياناً وبناتاً . يهتفون هتافاً واحداً
ويسيرون تحت سماء الله اول ساعة من العام الجديد .
بين الحان الاجراس واصوات المزامير والابواق .
بين صفوف طويلة من الابنية الشاهقة المنورة . المزينة بسعف
النخل واغصان الصنوبر والشربين .
يموج هذا الجمع موجاً في الشوارع والازقة .

يموج والكتف الى الكتف و كلهم في الانسانية اخوان واخوات
لا يعرف الواحد منهم الاخر ٠
بل كل يعرف الجمع باسره ٠
لا ضغينة هذه الساعة ولا حسد ولا اثم ولا شقاء ٠
لا حقد هذه الليلة يكدر في قلوب الناس الصفاء ٠
نعم يسير الشريف ازاء الفقير ولا يتقزز من رائحة ثيابه ٠
يسير الصاحي قبالة السكران ولا يشمئز من رائحة فمه ٠
يسير الجاحد والكاهن ولا صلاة ولا تجديف ٠
يسير الصالح والاثيم معاً ٠ وكل انيس اليف ٠
تسير العذراء قرب الزانية ضاحكة مستبشرة ٠
والكل يهتفون هتاف الصبيان ٠
في هذه الليلة يتحرر الانسان ٠

* * *

رحماكم ايها الساخرون بفرح الشعب العام ٠
عودوا واياي الى زمن الصبا ٠
ان بين هـذا الشعب المزدحم ولداً سورياً غريب السحنة ٠ نحيل
الجسم ٠ اسمر اللون ٠ مفلطح الرأس ٠ طويل الارنبة ٠
غليظ الشفتين ٠
وهو يفتح بمنكبيه طريقاً ويتقدم مع رفاقه الاعاجم هاتفاً
هتافهم ٠ نافخاً مثلهم في البوق ٠ مردداً اغانيهم

ونكاتهم . مقسماً ايمانهم . لاعناً كذلك لعناتهم .

غريب في دار الغربة نسيب في دار الحبور .

ومن لا يأسف على زمان الفتوة وايام اللهو والسرور ؟

من لا يقول هذا القول ويردد في ايام الكهولة هذا الكلام المبتذل ؟

ويلاه أمن اليوم نندب الصبوه ؟

اتخدعنا السنون نحن شبان هـذا العصر فتسقينا كاساً واحـدة وتتقاضانا ثمنها خمسين ومئة ؟

أتكسر الهة الشباب الكأس بعد ان ترينا اياها ؟

اقسم بالله ايها القارئ ان الساعات التي قضيتها في تلك الليالي لالذ واجمل ساعات الشباب .

بل هي ألذ ساعات قضيتها حتى اليوم – ساعـات سرور صاف بسيط . سرور الصبيان . في بستان الزمان .

ولكن الساقي كسر الكاس وحطمها .

اواه أسحق الساقي الكأس وسقاني مسحوقها ؟

وان طعم هذا المر ليذكرني اليوم بتلك الكاس الواحدة العذبة .

يذكرني اليوم بتلك الليالي فاضحك عند ما اتأمل فيما كنا نقوله ونفعله انا ورفاقي الاعاجم .

اي والله لم ازل اذكر اسماء بعضهم من صبيان وبنات .

واذكر لما كنا نخرج لنودع العام المنقضي ونستقبل العام الجديد .

ولما كنا نقف على منعطف الشارع كل مع حبيبه ونعد الوعود .
ونعقد العهود .

رحم الله الاحباء ووداده‍م . رحم الله الحبيبات وعهودهن .

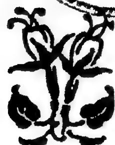
لا سمير الآن للروح سوى الطبيعة . ولا رفيق غير الكتاب
وبعض الاحرار الصالحين البعيدين .

والمناجاة تغني عن المشاهدة في الاحايين
ونحن في عشق البعيد من القانعين الصابرين .

تم الجزء الثاني من الريحانيات

ويليه الجزء الثالث





فهرس الكتاب



كتاب

ملوك العرب

اي رحلة صاحب الريحانيات في البلاد العربية وهو

يشتمل على ثمانية اقسام

القسم الاول : الملك حسين بن علي

القسم الثاني : الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله

القسم الثالث : السيد الادريسي

القسم الرابع : عدن والنواحي التسع المحمية

القسم الخامس : عبد العزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد

القسم السادس : آل صباح شيوخ الكويت

القسم السابع : آل خليفة شيوخ البحرين

القسم الثامن : الملك فيصل والعراق

الكتاب مزين بالخرائط والرسوم وقد يصدر في جزئين وسنباشر طبعه قريباً



4689/5/18